

رواية

#45

مبارك الهاجري

ظلمات

25.10.2018



مبارك الهاجري

ظلمات

رواية



ظلمات

مبارك الهاجري
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
الهاجري، مبارك
ظلمات / مبارك الهاجري الرياض 1435

72 صفحة 21.5 × 14.5 سم

ردمك: 2-4-01619-01619-978

1 - القصص العربية. السعودية أ. العنوان

ديوي 813,39531 رقم الايداع 1435/8416

الطبعة الأولى 2015 / 1436



المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

Email: info@darathar-net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة
تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل
الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية
وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها
من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

إهداء

**إلى الأيام التي شاخت في نفسي
ولم تجد بغيتها بعد.**

أَخَذْتُ عَنُوءَ مِنْ أَمَامِ دَارِي، سَأَلُونِي عَنْ
اسْمِي فَلَمْ أَتَأَخَّرَ عَنْ إِجَابَتِهِمْ، فَكَانَ هَذَا هُوَ سُؤَالُهُمْ
الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ، ثُمَّ لَمْ أَعْرِفْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ، بَلْ إِلَى هَذِهِ
اللَّحْظَةِ: فِيمَ كَانَ هَذَا؟

كُنْتُ قَدْ بَعَثْتُ بِمَكْتُوبٍ لِلْوَزِيرِ يَحْيَى الْعَامِرِيِّ أَشْكُو لَهُ فَتَوَى
شَاذَةَ لِقَاضِي « الْحَمِيرَاءِ » مَهْمُورَةً بِنَقْضِ ابْنِ مَنْصُورٍ قَاضِي الْمَدِينَةِ
السَّابِقِ، وَلَمْ أَفْعَلْ شَيْئاً غَيْرَ ذَلِكَ أَهْلاً لِأَنْ يُذَكَّرَ بَعْدَهَا إِلَّا حِينَ أَنْ
فَتَحْتُ لِلْحَارِسِينَ بَابِي لِيَعْتَقِلَانِي.

كُنْتُ فِيمَا قَبْلَ ذَلِكَ التَّارِيخِ بِزَمَنِ غَيْرِ طَوِيلٍ كَاتِباً لِيَحْيَى فِي بَعْضِ
شُؤُونِ الْخَلِيفَةِ مَعَ عَمَالِهِ وَوَلَاتِهِ، وَيَحْيَى كَانَ وَزِيرَ الْخَلِيفَةِ الْخَاصِّ. وَقَعَ
نَظَرُهُ عَلَى كِتَابَاتِي حِينَ كُنْتُ أَعَارِضُ ابْنَ جَابِرِ الْمُقَرَّرِيِّ فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ،
فَعَرَضَ عَلَيَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَكُونَ كَاتِبَ الْخَلِيفَةِ عِنْدَهُ، ثُمَّ إِنَّهُ عَادَ لِيَسْتَبْدِلَنِي

قبل أن أتمَّ عامي الأول بشهرين بكاتبٍ آخر؛ أجدى مني - بزعمه - في ذلك النوع من الكتابة الذي لا يقوم على طبعٍ لَيِّن، ولا عاطفة تتبدَّى من خلف السياق، ولا لسانٍ مزوقٍ بأدبٍ وبلاغة، ثم نصحني ملاطفةً أثناء ذلك العزل أن أجمع كتاباً أضمُّ فيه أحسن ما قيل في الخلفاء من مدحٍ وثناء؛ لعلِّي أجد حظوةً أكبر عند الخليفة، لأنني بذلك - والتمنؤ له - أقع على المكمن الذي يحبه الخليفة دون أن يصرِّح به لأحد، قالها وهو على ثقةٍ من ذلك؛ كيف لا، وهو وزيره وردفه. ثم إنَّه أقطعني أرضاً وأجرى عليَّ مالا لستة أشهرٍ خلت قبل أن تنقطع بيننا السبل إلا ما كان من رسالةٍ أو اثنتين بعثتهما له أثناء ذلكم الانقطاع أو تُقِّبهما جبل المودة والإخاء، وأجدد بهما سلامي وتحاياي فأجابني عليهما. ولو كان في أمر إرسالِي إليه سببٌ لكائنا هاتان أولى من الأخيرة، ولو كان في الأخيرة شيءٌ مما قد يكونُ فيه جرأةٌ أو إقدامٌ على السلطان لما غصَّ مجلس الخليفة ولا ركن الوزير بحوائج الناس وشكاواهم، فكيف بمن كان مثلي ممن رفعوا عنه الكلفة والخرج، وقربوه حتى صار من الخاصة وإن استعاضوا عنه بكاتبٍ غيره! وهذا ما لم أبرحه حيرةً في شأن سجنِي وشأني معهم!

عدتُ بعد عامين ونصف من ذلك الأسر أطلبهم أن يؤنسوني

برفيق في هذه الغياهب من الظلمات، حتى المصباح الذي علقوه لي
بعد لأي في الحائط ما كان ليضيء تلك العتمة الماثوثة في أعماق نفسي.
أجابوني إلى ذلك مرة قبل عامٍ ونيف حينما أدخلوا معي مجنوناً ليذهب
عني هم تلك العتمة، ويخفف من ثقل الوحدة التي طوّقت نفسي،
ويقبس لي من نوره نوراً لا يكاد ينطفئ؛ لكنه لا يهدي ضالاً، ولا يؤنس
وحشةً، ولا يبعثُ أملاً. بقي معي يومين اثنين كدتُ أفقد فيها ما تبقى
لي من عقلٍ تساءلتُ به كثيراً: فيم أنا هنا؟ ولم يكون هذا؟!!

حاولتُ بدءاً أن أستحضر له بعضاً مما كنتُ أحفظ من شعر امرئ
القيس، والنابغة، وزهير، ومدايح الأختل، وتشبيب عمر بن أبي ربيعة،
ونواقض جرير والفرزدق، وشكوى أبي فراس في سجنه وحكم المتنبي،
وبعضاً من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، إلا أن هذا المجنون لم
يكن معطياً أحداً سائحة ولا بارحة من الحديث؛ كان لا ينفكُ يولول
بصوته ويضع راحتي يديه على أذنيه فيضربهما ويصيح، ثم يضحك،
ولا يفوه سوى بكلمة واحدة ظلّ يرددّها إلى أن خرج: قد كنتُ أعلمُ
هذا، قد كنتُ أعلمُ هذا!

خفتُهُ على نفسي؛ غير أني لما رأيته لا يريد الاقتراب مني أبداً، لازماً

الأركان الثلاثة التي ودَّعْتُها له بدأت أتقرب إليه بما ثبت في صدري من الكتب التي أمضيتُ عمري أقرأ عليها مما علمته منها. كان حفظي جيداً لا متقناً؛ لكنني كنتُ أَلِزُّمُ نفسي باستحضاره حتى لا أموتَ من الأسى مكاني ذاك، على أني خشيتُ أن أنساه دفعةً واحدة حين يتداخل صوتي مع ولولته، فرجوتُ الحارس أن يخرجني، ونشدته بالله ألا يجيئني أمرهم فيما بعدُ بطلبٍ أبدأ، وأنني راضٍ بما قد قسمه الله لي من الوحدة الأبدية.

أخذوه في صبيحة اليوم الثالث، وما كانوا ليحيوني إلا إذا شأؤوا، كانوا يتبعون معي أقصى ما بلغوه من مكرٍ وخديعة؛ وكأنهم بذلك رجال العسس في كمينٍ يتسقطون به عدوًّا لهم؛ إذ يجيئونني إلى رغبتني بما لا يخطر في بالي، فيصنع في نفسي رهبةً لا قبل لي بها، فأنكفئ أول ما أنكفئ على رغبتني تلك؛ حتى لا أعود فأطلب أو أرغب في أي شيءٍ فيما بعدُ، وعلى ذلك كان المجنونُ الإشارةَ الجليلةَ بأنني لن أجاب في طلبٍ أبدأ، وأنني في نعيمٍ لا أدري ما يحُلُّ بي إن أنا فقدته.

لستُ بعيداً من يحيى العامري، فأنا في سردابٍ تحت قصر الخليفة، والفكرة التي علقته في مشجب ظني حينما خلتُ أن في الأمر لبساً ما، أو سوء فهمٍ لم يقع فيه سواي؛ تلاشت مع مضيِّ القليل من

الوقت بعدما كنتُ أستغيث بيحيى بأعلى صوتي في أرجاء الزنزانة طالباً منهم أن يعلموه بأمرى؛ تظاهروا لي بأن تلك الصيحات كان لها أثرٌ بالغ عليهم، فوعدني أحدهم بزيارة من يحيى لينظر في أمرى؛ غير أن ذلك الوعد لم يلبث مع الأيام أن يصبح مماطلةً وتسويقاً وهو ما دفعني في آخر الأمر إلى أن أتشبث بقضبان نافذة الباب وأصبح بأعلى صوتي، وأضرب بكلتا يديَّ ورجليَّ الباب؛ كأعرابيٍّ جافّ الطبع غليظ السجية. لم ألبث طويلاً حتى جُلدتُ بالسوط ما يربو على مائة وعشرين جلدة إلى أن أغشيَّ عليَّ. كنتُ أنشد جلادي بالله، وأقول له: ربِّكُ إلّا أبلغت الوزير، ربِّكُ إلّا ذكرتني عنده، قُلْ له إنني فرغتُ من الكتاب الذي أوصاني به، قلْ له ذلك فحسب. كانوا يخبروني في تلك الأثناء؛ حتى قبل أن يقضيَّ الأمرُ بجلدي أنَّ الوزير ليس بوزير - تزعمُ أنَّك تعرفه جيداً - إذا لم يكن يعلم بأنك هنا، فلمُ أرضَ إلى أن ألححتُ فجرى لي ما جرى.

كنتُ أوشك على الخبال، بل لم أكن حتى أعهد من نفسي تلكما الخفة والعجلة التي بدوتُ بهما، وما كنتُ لأرجع إلى ذاك الذي أعرفه في نفسي إلّا بعدما وقف الأمرُ على بابي بأيامٍ من تلك الحادثة ليُقرَّ في

نفسى كثيراً مما اعتلج بداخلها إبان أن ذكر لي بأنني إنما نزلت على أمر الخليفة وعلم الوزير، سألتُهُ عن السبب، فأجابني: بأنه لا يعلم حقيقة ذلك، عدتُ عليه بسؤالٍ استنكرتُ فيه علم الوزير وأنه ربما أن أحداً كاد للوزير ولم يعلمه أو لشيءٍ ما من هذا القبيل؛ لكنه أقسم لي أياناً مُغلظة بأنَّ الوزير يعرف مكاني؛ فضلاً عن أنه قد يكون هو من أشار - غالباً - للخليفة بحبسي.

لستُ غرّاً حتى لا أعلم بأنَّ الرجل صادق، لكنها أسباب النجاة تبدّت في أن أختلق أيَّ شيءٍ يدفع بألمي لأخرج، وكان من بينها بل على رأسها أن يكون شفيعي في دخول هذا القصر من قبل هو ذاته شفيعي في الخروج منه؛ ولكنَّ لغة الأمر وبعض حراسه فيما قبل وشت بالكثير الكثير الذي تغافلتُ عنه لأصطنع قارباً للنجاة. مكثتُ يعتذر لي من سوطهم، كأنَّه أشفق عليّ، لا بأس، الله أرحم وأرأف بي منهم. طلبتُ منه أن يمدوني بقراطيس وصحف لأكتب عليها، فقد سئمتُ أن أكون خِلواً من عملٍ أكُذُّ به بدني وعقلي. لم يعدني بإجابة؛ لكنه اجتهد في أن يكون لوجهه معنى يشي عن سعيه في ذلك، أخبرني بأنه قد حيل بيني وبين ذلك إلا بأمرٍ من الخليفة نفسه، ثم أشار عليّ بمصحفٍ موضوع

على رفٍّ مرفوع وقال:

- لم يبيحوا لك سوى هذا.

- اللهُ بيني وبينهم.

جهدتُ أتأسى منذ أن أدركتُ أنني سألبث في السجن عمراً
بأئمةٍ رفعوا من شأنه عند من كان مثلي ممن يسهل عليه - أي: السجن -
أبداً أن يضعهم أو يضع منهم؛ بيد أن معرفتي بنفسِي تميطني عن ذلك
الطريق أحياناً. أكثرْتُ من قراءة سورة يوسف، أحببْتُها كثيراً حتى كُاني
كلما كررتها أقرأها للمرة الأولى، حفظتها، تعلَّقتُ بها، وكأن سيدنا
يوسف عليه السلام معي هنا حيثُ أنزل، يهيني من حكمته وعلمه،
ويعبر لي بعض الرؤى التي أشعرُ أنها آذنةٌ بفرج؛ لكنه يبتسم ابتسامةً
أعجز عن تعبيرها حين قصصْتُ له رؤيائي في تلك الفتاة، وهل يتفق
مع تعبير «الطيلساني» أبي محمد؟ أم مع ذلك المعبر الذي لا أذكر اسمه؟
لم أجد غير ذلكم التأويل المضيء في جبينه، فاكتفيتُ به قطعاً. عشتُ معه
زمناً لا أعلم كم هو؟ حتى إني أرى أحياناً ذاك الذي يعصرُ خمرأً في منامه
يبتهل إلى الله في ناحيةٍ قصوى، ويُغشى على بصري تطيراً من الآخر، فلا
أجد له ساحةً في هاجسي فضلاً عن أن يعرض فيما يخيل إليّ.

كانت أياماً آنستُ فيها كثيراً من الوحشة التي شعرتُ بها ولا ريب. حفظتُ كتاب الله في مائة وعشرين يوماً، كنتُ لا أستطيعُ الزمن وهو يقتطعني على مهلٍ من أجلٍ أن أركزه في صدري، فلا يتحلحل ولا يتخلخل!

ذات يومٍ لم أعرف نهاره من ليله، كنتُ أتحدث كما قد جرت به العادة من بضع ليالٍ في أحد أيام العرب في الجاهلية، وكنتُ قد بلغت الحدث التي أتى فيه النعمان بن المنذر إلى هانئ بن مسعود يستجيرُ به، فوقفْتُ مُنظراً ذلك الحارس أن يسألني فيمَ قال سيد بني شيبان؛ لكن صوتي عاد إليّ دون رد، فنظرتُ من قضبان الباب الصغيرة، لأرى حارساً آخر مستنداً على ركنٍ يلي أحد الأبواب ويحتسي فضلةً من ذلك الكأس، لا أظنه ثملاً، سألتُهُ:

- أين صاحبك أليست هذه نوبته؟

لم يتحرك من مكانه:

- لم تسأل؟

- لأنه كان هنا بالأمس؛ لأنه كان ينصتُ لي، فيجيبني ويتحدث

معني، ألم تسمعني أنت منذ قليل؟!

- ليس هنا.

- هل أصابه مكروه؟

- لا، ولا تعد لمثل هذا، ارجع إلى جدارك وخلّط عليه كما تشاء!

قالها حازماً؛ ولكنني أبيتُ إلا أن أدفع عن عقلي هذه الشبهة:

- سمّه تخليطاً، وسمّه ما شئت؛ لكن وربي إنّ في هذا الجدار حياة

تنأى بنفسها عن أن تُبعث في قلوبكم. صاحبك هذا وقع على شيء

منها، فعزّ عليها أن لا يجمع الحياء مع رقة قلبه، فانتشلت به بعيداً يتنقّى

من الدّنس.

لا أعلم أحلّم عن قولي؟ أم تُراه عطف عليّ هو الآخر؟ بدأتُ

أرتاب في أنّ من يرق لي منهم يُقصّ دون إبطاء، كان ذلك غُرّة مع الأمر

الذي جهد أن أهتدي من حيرتي تلك في أمر معرفة الوزير من عدمها في

شأني، ثم وعده لي بالسعي وراء تحقيق رغبتني في دواة وقراطيس وكتب،

وإعلامي بأوقات الصلاة عقب أن التبست الأيام عليّ فلا أعلم نهارها

من ليلها، وفوق ذلك كله لينّه في المعاملة، ولطفه في الحديث معي، فما

لبث غير يسيرٍ حتى استُعِض بما ليس لي فيه عوض، واستُخلف بما كان

خيرَه كلّهُ في أن يكف بعض شرّه، ولعلّ من خيرِه المقتطع أن آنسني بهذا

الحارس الذي أقصاه آنفاً، إذ صُرفَ عما يحسن أن أسميه مجازاً مسامرة كنت أمتع بها نفسي، نفسي التي بدأت أتلُفُ معها مجدداً عقب اختلافٍ لا يزال له أثرٌ من حافر الزمن وظلف المكان وظهر المجنّ الذي قلبه عليّ من لم أظنّ إلا أنه ردئي ساعة عُسرة، وردائي ساعة ضيق وحسرة! كان يجيبني ذلك الحارس المُقصى مما تسمح به نفسه ويظنّ ألا أخرج عليه من أوليائه إن هو أطلعني عليه، وكان سخيّاً في عيني مقتصداً مع ميلٍ إلى البخل في عين الحق. كما أنه كان محسناً في إنصاته واستماعه وأسئلته التي يطرحها عليّ في كثيرٍ من المسامرات التي تبشُّ لنا كل ليلة تحينُ فيها مناوبته. كان في السرداب معي سجينان، زنازينهما متفرقة لا أعلم مكانها إلا بالجهة التي يومئ الحارس برأسه إليها عندما أخبرني. سُميت زنازين وهي لم تُؤسس - إذ بُنيت - هكذا، كان بها ممرٌ آمن للخليفة، ومهاجع لجنده - هذه شاهدتها قبل أن يخبرني - جُعِلَتْ في غير ظرفٍ سجناً خاصّة لا يحبهم الخليفة ولا يحبونه أو هكذا يعتقد، كان أحدهما قد أفنى شبابه هنا من بواكير عهد الخليفة الأب الذي أمضى عشرين سنة، ثم اثنتي عشرة أخرى قضت من حكم هذا، شاخ الآن كما يقول الحارس، له لحية تصل قريباً من سرّته. قال لي إنه لو كان له من شفاعَةٍ

أو من عونٍ أو من الأمر شيءٍ لآثر ذلك كله للشيخ من دوني حين سألتُهُ
أن يأتي أحدَ أبناءِ عمومتي، أو أبا الحسن بخبري! لم يخبرني أيضاً فيمِ
سُجِنَ الرجل، لتصبح إجابة هذا السؤال أبداً عزيزةً على أن يعرفها
مثلي وذلك الشيخ ومن لفّ لفنا. وددتُ أن لو أسهب عن السجين
الآخر، لا شيءٍ إلا لإطالة الحديث، وإماطة أذى الوقت؛ لكنه اكتفى
بأن قال لي إنه سيق بعدي بشهرٍ إلى هنا لا غير، ولم أكن أسمع منه ولا
من الشيخ شيئاً يبعث على الحياة إلا سُعالاً من الشيخ ميّزته في أعقاب
ذلك الحديث بزمان. أو عز الحارس ذلك إلى بعدنا عن بعض؛ خاصة
ذاك الأخير الذي ينزل جنوباً مني قريباً من السور الخلفي في ركن قصي؛
بيد أني لم آبه بحديثه هذا وقد وجدتُ عليه إذ كان فظاً في رفضه ذلك؛
وما لبثتُ أن أنسيتُ ما أجدُّ في طليعة نوبته الأخرى، هو اعتذر لي أيضاً
دون أن يذكر لي الباعث الذي انتظرتُ بعضاً منه منذ نزلتُ، إلى أن
غادر هو الآخر، ولستُ أدري هل عوقب حين جعلوه على أحد الثغور
كما قيل لي من بعد، أم كان شيئاً تجري به عادات العسكر التي لا أعرفُ
عنها شيئاً أشغل به فكري في هذا الزمن الذي أنا أحوجُّ إلى ساعاته أن
تغض الطرف عني، وألا تذكرني بنفسها عبر خلو من أي شيءٍ وإن لم

يكن ذا قيمة تُذكر.

لم يعنّ لهم بعد هذه العامين والنصف التي خلت أن يترفقوا في أمري، ولم تُنقص الأيام بمرورها من غلظتهم وقسوتهم شيئاً حين كادوا يضربوني بالسوط مرةً أخرى مغضبين أن طلبتُ منهم ألا أبقى وحدي، وأن يأتوني بنزِيلٍ، أو يأتوا بي إليه. عدوا هذا نكشاً لعهدٍ ألزمتُ به نفسي سابقاً، وأنا والله ما أعطيتهم عهداً ولا موثقاً، وإن كان من شيءٍ غير ذلك قلتهُ ساعة تقيّةٍ مما كاد يذهب بقيّةٍ من عقلي من ذلك المجنون، فإني أبرأ إلى الله منه وإلى نفسي التي آثرتُ ألا يصيبها من المكاره أول ما يصيبها سوى الموت؛ إذ إنّ ما تبقى من رمق الحياة مع رغدٍ من الخبل هو موتٌ أنكى من ذاك الذي نخافه مذ حيننا.

فزعتُ من صرير الباب ذات ليلةٍ كللتها بنومٍ مبكرٍ وقد فُتح على غير عادةٍ جرت، وخشيتُ أنّي على موعدٍ مع عقابٍ آجلٍ لطلبي وقد مضى عليه سبتٌ، وما الفترة التي مكثتها دونه سوى ملالةٍ ظننتها حلماً منهم، وما هو إن كان بحلمٍ. جلستُ أستبصر بعيني، فإذا بالآمر ومن خلفه الحارس، فقال لي:

- هل تحفظُ تائيةً بشار؟

أَخَذْتُ لَوْهْلِيَّ وَكَأَنِّي غُيِّتُ عَنِّي، وَكَأَن الزَّمَن طَوَى مَكَانِي
هَذَا وَخَرَجَ بِهِ مِمَّا أَسْتَطَعْتُ أَنْ أَعْتَصِرَ عَقْلِي لِأَدْرَكَهُ، فَكُرْتُ أَنَّهَا لَوْثَةٌ
أَصَابَتْنِي، فَبَدَأَ لِي الْخَرْفُ فِيمَا يَشْبَهُ التَّأَمُّلَ وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أُغِيبَ سَوَى
مِنَ الْمَادَّةِ الَّتِي تَشِي بِوُجُودِي أَمَامَ النَّازِلِ. أَعَادَ الْأَمْرُ سُؤَالَ، فَتَنَبَّهْتُ
فَإِذَا بِي أَعْقَلَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، قَدْ أَكُونُ غَفُوتٌ إِبَّانَ سُؤَالِهِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى،
وَقَدْ أَكُونُ مِمَّنْ لَوْثَتُهُ فِي مَهْدِهَا تَرُوحُ وَتَغْدُو. اتَّكَأْتُ بِبَاطِنِ كَفِي عَلَى
الْأَرْضِ، فَأَجَبْتُهُ وَأَنَا مَا زِلْتُ بِيَعُضُ فِزْعِي الْأَوَّلِ:

- بَشَارَ مَنْ؟ وَأَيُّ تَائِيَةٍ؟

- تَائِيَةٍ بِشَارَ بْنِ بَرْدٍ، هَلْ تَحْفَظُهَا؟

- أَيُّ تَائِيَةٍ أَيُّهَا الْأَمْرُ؟ مِنْ بَعْثِكَ لِهَذَا؟

- اسْمَعْ، نَحْنُ عَلَى عَجَلَةٍ، هَلْ تَحْفَظُهَا أَمْ لَا؟

- لِبَشَارِ تَائِيَّاتٍ لَا تَائِيَةٍ، قُلْ لِمَنْ بَعْثِكَ ذَلِكَ!

وَحِينَ هَمَّ بِالْخُرُوجِ التَّفَتَّ وَقَالَ لِي:

- وَهَلْ تَحْفَظُهَا كُلَّهَا؟

- أَحْفَظُ أَرْبَعَةً مِنْهَا.

خَرَجَ، وَمَا أَغْلَقَ الْحَارِسُ الْبَابَ، بَلْ ظَلَّ وَاقِفًا بِجَانِبِهِ يَنْتَظِرُ. فِي

الأمرِ تدبيرٌ خفيٌ عني، ولا ريب أنَّه يتعلق بشعر بشار بن برد، فخطر لي
أن أجسَّ ما كنتُ أحفظه من تأثياته بالوقوف على مطالعته:

أُراني قد تصاييتُ وقد كنتُ تناهيتُ
تولى سقمي حتى إذا قلتُ تعلَّيتُ
هذه في نسيبه بعدة أذكرها، وثانيةً في حُبِّي:

قُلْ لحبي قربيني أنتِ نفسي وحياتي
وهومي حين أغدو وحديثي في الصلاةِ
والثالثة... تلك التي فيها: وإذا أبى شيئاً أبيتهُ

ما أولها؟ يبدو أنني أنسيتها؟

دهمني الحارس وهو يلقي بالتحية لمن؟ يا إلهي إنه يحيي، الوزير
يحيي، طفقتُ أدعو: اللهم فرجاً من عندك، اللهم إنك قد وعدتني
بالإجابة كما قد وعدت عبادك، اللهم فأنجزها لي عاجلاً يا ربَّ. وقف
على العتبة ولم يدخل، أمّا أنا فما أطلتُ النظرَ في حياته المتواري، وكنتُ
أشدَّ حياءً منه لو منعته حشمتهُ وأدبه من أن تقع عينه على عيني بذلك
العلوِّ السالفِ التي كانت تبصر منه، تحدّث:

- كيف أنت يا أبان؟

نظرتُ له في أسفٍ، فقال قبل أن أجيبه:

- اسمع أنا على عجل، إذا كنت تحفظ تائية بشار التي نهاه فيها المهدي عن الغزل، فالزمني لتلقيها على الخليفة. شاء أن يسمعها في هذه اللحظة، ولو كان في غير هذا الوقت، لما أشرتُ عليه بك!

سرت بي رجفةً مع أسفٍ على أسي، هي الأخيرة التي أنسيتهَا، وهو الأول الذي ذكرتهُ بخيرٍ في هذا القصر، ولم يذكرني بشيءٍ إلا أن فرضني الوقتُ على رأيهِ بباعثٍ من امثالٍ عجيبٍ لمولاه، بل إنه لم يتخرج مما فعله بي حتى، وإن كان وزيراً، علم الله أن النفس الندية لا تأسنُ ولا تفسد بتغير أحوالها، وإن المال بأمله، والجاه بعزته، والسلطة بحظوتها، لا تقطف من المرء إن هي قدرت عليه وتثنى لها قدرته على تمييز الخطأ من الصواب، وعليه فالحياء والحرجُ والندم والتوبة والإياب نتيجةٌ من ذلك التمييز، حتى أثرُ المروءة المقتول الذي تطويه طواري السياسة حسب منفعتها لا يلبث أن يمتدَّ في شارب السجية، السجية تلك التي حمدتهُ كثيراً عليها في زمنٍ مضى.

تبعتهُ على أن بي غصةً؛ لكنَّ أمني في أن أحظى بما يبذل من حالي حالاً أفضل جعلني أتغافل عما يعترضني من إساءةٍ أو إهانة، أو عماً أعتقد به ذلك، قد يكون الأمر عادياً لا يحتمل هذا الهوان الذي أشعرُ

به، غير أني أُجرحُ في مثل هذا؛ سواءً أكان حقيقةً أم شيئاً اعتقدتهُ!
كنتُ أبصرُ ما دون المصاييح المعلقة عند كل بابٍ من أبواب
الغرف المقسمة في السرداب، لعلِّي أعرف زلزاة الشيخ من ظلٍّ له تخلّفه
تلك الإضاءة، أو من صوتٍ له يصل مسمعي؛ لذلك تمنّيتهُ يسعل في
تلك اللحظة، ولمّا لم يفعل أُبْتُ إلى ذاكرتي أستحثّها في مطلع أبيتهُ.. إن
الخليفة..

حين همّ الوزير بأن يصعد أولى درجات السلم توقّفت عباءته
قبل أن يقف ويستدير إليّ، فيقول:

- لا تتبدّر الخليفة في حديث، ولا تعرض أمرك له ما لن يُفسحَ
لك عن ذلك، وكن أسرع في إجابتك سؤاله من أن يسمع رجوع آخر
حرفٍ منه. تذللّ له وكن بين يديه مولى بين يدي سيده!

- لكنني أحتاج لمن يذكرني مطلع القصيدة فحسب؛ حتى
أسترسل.. أعلمُ أني سأسترسل يا أبا عمارة!
- هو ذاك.

ثم صعد درجةً وأخرى فتوقف والتفت لي وأنا ما زلتُ في مكاني
على أول درجة، مردفاً:

- التمس لنفسك مخرجاً يا أبان، واعلم أني لو كنتُ نافعك بشيءٍ

لنفعُكَ به حين كنتَ آمناً في بيتك!

أما والله لو لم يظهر من مروءته سوى أن صدَّقني في هذه لكفى .
صعدتُ خلفه وقد أرقْتُ من المطلع إذ لم أهُتِدِ إليه، فجعلت أتوانى في
الصعود حتى يرده الله لي رداً جميلاً، كنتُ قد دخلتُ على الخليفة من قبل
حين كنتُ بوزني ذلك عندهم، وأعرف كثيراً من الآداب التي أملاها
الخليفة على خاصته لتُفرض على الوفود والزائرين والرسل والعاملين
أيضاً؛ لكن لم أكن قد دخلتُ عليه في جلسة خاصة كهذه أبداً، وهذا ما
دعا العامري لأن يملِّي عليَّ ما ينبغي أن أتخلَّق به في هذه اللحظة .

صعد أولى درجات السلم الآخر معترضاً سُلمِّي، استعجلني
فتعجَّلتُ خوفاً من أن أفقد الفرصة . حين انتهى بنا السلم دلف إلى
اليمين فتبعتهُ وقد بدا ممرٌ طويل أكاد أرى آخره ولا أعرف إلى أي جهة
يفضي؛ لكنني لم أكد أطيل نظري حتى أرختُ جاريةً لا أدري أين كانت
ستراً بيننا وبينه، ربما أشار الوزير لها بذلك، حتى إذا ما بلغنا الستَرَ
انعطف بنا الممر شمالاً ثم يميناً بعد رخامتين رأيتُ من أحدها وجهاً
آخر أصبح لي، شارباً بلحية لم يقطع بينهما سوى شفتين لا تبدوان كما
هما من غزارة الشعر، أمّا عمامتي فخلتُها خضراء وأنا والله على عهدٍ
بصفرتها وأحسبُ أن أثر الزمن الفائق قد وقع عليها حتى لا أقصر

فيما بعد احتجاجي عليه في أثره على نفسي دون تلك المقتنيات التي بقيت معي. في أول معبرٍ من اليسار وقف الوزير قريباً من الركن ذاته ولم يعزب عن نظري وأنا أتبعه، فإذا به يتمتم للخادم ما فرغ منه حين بلوغي إياه:

- سيكفيك مؤونة أن تغتسل بنفسك، ثم تلبس وتتطيب. إلى ذاك سألقاك هناك عند الخليفة!

أظنُّ أنه أمر الخادم ألا يمنحني وقتاً أتجاوز به مما قد افترضه عليه، سألتُهُ وأنا أخلع ملابسي على عجلٍ حين أمرني:

- هل تحفظ شيئاً من الشعر؟

لم ينبس، وإنما مدَّ لي إزاراً قصيراً لا يتجاوز ركبتي إشارةً منه على أن أنزع سروالي ليشرع في عمله. مذ حبستُ وأنا لا يُسمحُ لي بأن أغتسل إلا في ليلة العيدين، ولم يكن هذا العفن الذي شاخ في ملابسي إلا سبب ذلك أولاً وآخرأ، ثم إنَّه لم يكن قد خرف بعد بحكم شببته؛ لأنني قد جمعت من الماء القليل الذي يأتونني به لقضاء حاجتي ووضوئي على مدى مراتٍ كثيرةٍ كنت قد أخفيتُه عنهم في إناءٍ خلف قشةٍ في ركنٍ أقصى، واغتسلتُ به مرتين على خلوّ ثلاثة عشر يوماً جمعتُ فيها ما زاد عن الفضلة، فمُنِعْتُ من شربه ساعةً أن وقعتُ عينُ الحفير على شعري

وهو يقطرُ من الماء، وملابسي وهي منتشيةٌ من الببل، ثم إنَّهم بعد يومٍ وليلةٍ تامةٍ من توسلاتي التي لا تنقطع عادوا ليملؤون لي سقايتي بما يقدرونه ممسكاً لظمئي دون اعتبارٍ لما قد يعترضني منه حتى لو لم يكن طارئاً، لم أتأمل في ما وراء حماقتهم هذه؛ لكنني أعلمُ أنهم يريدون أن يطمسوا معالم إنسانيتي؛ ليستبدلوها بما ترضاه عنها دما متهم وقبحهم. هم والله لا يحملون بين جنوبهم أنفسهم؛ بل كُناسةً وزبلاً من شرِّ سواقط الناس ورذائلهم. لم أكن حرجاً حين مددتُ له بعفنه الذي جعلوه لي كسوة؛ لأنه أبداً لم يكن زئي ولا هيئتي. أشار على طستٍ كبيرٍ من نحاس بأن أجلس فيه وقد أزيد ماؤه الدافئ برغوةٍ من صابون وشيءٍ من أشنان، أشاح عني حتى تغلغلْتُ داخله، فشعرتُ بما لو قايضوني به على الخروج إلى الخليفة أو البقاء في هذا الطست، لبقيتُ دون حرج. أخذ الخادم يصب علي بإبريقٍ كان في يده. ما كان ماءً خالصاً بل مشوباً بروائح زهريةٍ بديعة، ثم طفق يدعكني بما بلغت يده من الماء في الطست بليفةٍ كانت في يده، قلتُ له وأنا أدلك فخذني:

ـ ألا تحفظُ شيئاً من شعر بشار؟ أي شيء؟

لم يجبني، وكأنه لا يسمع، أو لا يعي ما أقول، إنما قبض قبضةً من شعر رأسي ليفركه، خشيتُ أن يكون الرجلُ أبكم، وإن كان قد سمع

من الوزير لكنه لم يجبه، لم أسمع صوته، فالتفتُ له مشيراً بسبابتي نحو شفتي:

- عذراً، لم أكن أعلم أنك لا تستطيع أن تتكلم!
تخابثتُ؛ لأنني أدركتُ في غور نفسي أنه يتحدث كأي أحد؛ لكنه لا يؤثر الحديث معي؛ ولأجل ذلك الإزدراء الذي بعثه من نفسي عليّ، كانت تلك الكلمة، وكان وقعها عليه أن أمال برأسي للأمام حتى يفرغَ من فركه. قد يكونُ لصلعه سببٌ يفسر تلك الشدة التي قبض بها على شعر رأسي، ولم تفلح تلك الإضاءة التي جعلتها الجدران خافتة تشبه ليلةً قمرية في أن أتبين وجهه أكثر؛ لكنه كان زنجياً أقل دكنةً ممن نعرفهم من الزوج عادةً، وأصلع الرأس إلا من حاجبين كثيرين. تمنيتُ أن لو سكنتُ منذ أن تجاهلني قبلاً حتى لا أشعر بإزدراءٍ ممضٍ حين أعاد الكرة، ثم: أكنتُ متأملاً أن أجد شيئاً من الأدب لدى هذا فأسأله لأريق شيئاً من ماء وجهي، أم أنها رغبة الحديث مع أيّ عقب ذلك الجمود في السرداب، أم أنها نشوة أن ألقى الخليفة فأفوز منه بأمانٍ وصفح، على أنني لا أدري عن أي شيء يصفح؛ لكنني سأستغفره من كل ما اعتقدتُ أنه ذنباً بحق من كان له الحق أم لم يكن، وسأرجو من الله أن يمسح على قلبه بمسوح الرحمة والعطف فيلين لي.

ما كان ليتأخر وهو من كان فظاً بسبب العجلة، عاد وفي يديه ثوبٌ مزبرقٌ في ظني وعمّةٌ وعباءةٌ، خرجتُ من الماء حانقاً عليه وعلى دياجة بشار. تنشّفتُ بالإزار الذي أعطانيه من قبل على عجل. هنيهاتٌ حتى حضر حاجبٌ متقلّدٌ سيفاً ينتظرني قريباً من الباب، زكت رائحة الطيب على الثياب حين لبستها أكثر منها قبل اللباس، ثم مسد الخادم بطيبه الذي معه لحتي وشعري قبل أن أعتمر العمّة المهرأة، هو شيءٌ من الامتنان خالطه شيءٌ من الحق ما زلتُ أشعرُ به تجاه الخادم، فلستُ أدري إن كان هو من اصطفى هذه العمّة بلونها الذي هو لون بائستي الملقاة في الحمام؛ على أن هذه أطرى وأجود، إذا كان هذا فإنه توسم في سيادة، وتالله ما جاوز، أم أنه شيءٌ اتفق مع شأني دون قصد، لا أدري غير أن شيئاً نبيلاً أبى أن نختم لقاءنا دون أن نشعر بالمودة لبعضنا بعضاً، هذا ليس عني فحسب؛ إذ إنه أبدى لطفاً ورفقاً وهو يمسح بطيبه على وجهي وعباءتي. تبعثُ الحاجب حيثُ الخليفة، لم يكن من انعطافات كتلك؛ لكنّ المسافة هذه المرة كانت أطول وأبهى. في هذا الممر الذي ظننتُ بعد لأيٍّ أنه موازٍ لذلك الذي أرخت عليه الجارية سترًا؛ نقشُ فسيفسائي في ركنه الأيمن مواجهاً للقادم من المعبر الذي انعطفنا منه شمالاً، كانت ظباء تظللن بشجرةٍ ویرشتفن من ماءٍ قريبٍ منها، منظرٌ

أزاح عن نفسي شيئاً من الغمة، ثم ..

يا منظرأً حسناً رأيته من وجهٍ جاريةٍ فديتهُ

كان مطلع بشار الذي اهتدى لذاكرتي أوقع في نفسي من زينة البهو الذي أعرفه ولا أعرفه، تلك القباب الثلاث، والشمعدانات الضخمة، وبسط الحرير المفروشة تحت طريق الخليفة إلى عرشه، أعرفها حين أعقبْتُ أبا عمارة مرتين بورقةٍ ودواةٍ لأكتب رسالةً عاجلةً للخليفة في شأنٍ لأحد ولاته، ثم بصحبة ابنه الأمير زيد قبل أن يقضى - رحمه الله - قاصداً الحج في دابته التي ثارت به فسقط عنها على رأسه فمات من ساعته، كان ذلك في غياب الخليفة مع الوزير لشأنٍ لا نعلمه، وكان الأمير رحمه الله يحبُّ يحبى ويودُّ أن لو اختصَّ به من دون أبيه، فكان أن قرَّبني منه لما علم بمنزلتي عند يحبى؛ لكن ذلك لم يدم طويلاً، ومن ثم لم يتأتَّ لي سببٌ آخر حتى أعود للمكان ذاته غيرُ سببي هذا، أمَّا ما لستُ أعرفه في هذا البهو، فكان في كل ما عرفته فيه من قبل ثم عاد فتَنكَّر لي بدءاً من القباب ذاتها، وانتهاءً بتلك السقايات التي كانت تحيط بالعرش عن يمينه وشماله وهي تصبُّ ماءً أحمر على بركةٍ أسفل منها. كان سروري لا يوصف، حتى أني لم أكُد أبلغ مع الحاجب باباً موارباً في الركن الأيمن من العرش إلا وأنا أردد أربعة أبيات دون المطلع. حاجبٌ

آخر كان يقف على الباب استأذن لنا الخليفة، فكان أن دخلتُ وأنا أتعرَّ في عباوتي، ما كانت بأطول مني؛ لكنه خوفي ورجائي في ألا أخرج خائباً منقطعاً من كل ما بقي لروحي من أمل، وإنَّه لعمري لقليل!

قبل أن أسلم على الخليفة، دعوتُ الله في سري أن ينجينني بالقدر الذي لا سلطة فيه لأحدٍ علي، ولا أدنى من ذلك مما له القدرة على أن يضع من قدري الذي أعرفه لنفسي ولو لم يتعرف ذلك القدرَ أحدٌ في المجلس أو يعبأ به.

حين سلَّمتُ لم أكن قد ملأتُ عيني من النظرِ إليه، لا محبةً والله ولا معنىً بالغاً من الهيبة التي أخافها أول ما أخافها على نفسي؛ ولكن جرحاً غائراً أبى إلا أن يوقع نظري فيما حوله حين يصوبني وكأنني أنظرُ إليه. كانت شرفة تطلُّ على حوضٍ ماءٍ محاط بشجيرات علقت على زواياها شمعداناتٌ إناراتها أقوى من تلك التي التفت على بعضها الآخر، وددتُ أن أستظلَّ بفيء نظرةٍ لما وراء الأسوار من هناك لكنني خشيتُ أن يكون هذا الظلُّ محاطاً بأعينهم، فأشحتُ إليهم أنتظرُ إشارة البدء. كان الخليفة على كرسيه عن شمال الداخل إلى الشرفة محلَّ وقوفي قبالة سورها القصير الذي لا يتجاوز ذراعاً ونصف، كان يحیی عن شماله، بينما انتصف الشرفة خادمٌ حجب عني رجلاً لم أتبيَّنه يصبُّ إمَّا

نبذاً أو خمرأ من كوز خزف في أقداحٍ أحاطت بمائدةٍ من فاكهةٍ شتى .
كان الخليفة يتفرّسُني، ولم يكن يشغله عن ذلك إلا القدح الذي مدَّ
به الخادماً إليه، ثم إنَّه أشار له بأن يدير علي قدحاً فأجلس مما يليني .
اعتذرتُ - وقد كان ذلك لي - في امتنانٍ بأنني أحب أن أنشد الخليفة
واقفاً، أو مأ برأسه أمارَةً على رضاه مع تلك الهيبة التي لم تبطنها تلك
النشوة التي يبعثها ما في كأسه ومجلسه . جلس الخادماً قبل أن تستوي
يدُ الخليفة في إشارته له بذلك، ثم تبَيَّن لي وجه الرجل إياه، لم أكن قد
شاهدته من قبل، كان قد كفَّ يده التي امتدت إلى المائدة حين تنحج
الخليفة وقال لي :

- حسناً، كان يحبِّي قد أبلغني أنك أدنى ما تكون في الشعرِ راويةٌ
جُعيد، وأنتك أول ما سقيت منه في دلوك كان فيما جرى بين الخلفاء
وشعرائهم، وكنت - كما قال - تتهياً لأن تجمع في ذاك كتاباً، وأنا لم أعهد
عشرةً لأبي عمارةٍ فيما هو فوق هذا، فهل لديك في الذي بعثك بشأنه من
قول بشار حين نهاء المهدي عن التشبيب، في قوله :

يا منظراً حسناً رأيتهُ من وجهٍ جاريةٍ فديتهُ

كان يحبِّي قد أشار لي بعينه شيئاً هو فوق التوسل ودون المؤازرة
إذ خشي أنني ما زلتُ ناسياً المطلع .

- أجل مولاي، ولتأذن لي:

يا منظرًا حسنًا رأيته	من وجه جارية فديته
بعثت إليّ تسومني	بُردَ الشبابِ وقد طويته
وتقول: إنك قد جفو	تَ وكنتَ لي شجنًا حويته
فأريدُ صُرمك تارة	وإذا ارعوى قلبي نهيته
والله ربّ محمد	ما إن غدرتُ ولا نويته
أمسكتُ عنك وربما	عرض البلاءُ وما بغيته
إنّ الخليفةَ قد أبى	وإذا أبى شيئاً أبيته

أمال الخليفةُ برأسه طرباً هنا وأشار إلى الوزير وذلك الرجل
بأن يجمعوا على هذا البيت وما والاّه أفهامهم، فطنتُ لذلك فابتدرتُ
الخليفة ما يشتهي وأعدته عليه مرةً أخرى:

إنّ الخليفةَ قد أبى	وإذا أبى شيئاً أبيته
وَحُضِبَ رخص البنا	ن، بكى عليّ وما بكيته
ويشوقني بيتُ الحبيب	ب إذا غدوتُ وأين بيته؟
قام الخليفةُ دونهُ	فصبرتُ عنه وما قلّيته
ونہاني الملكُ الهما	مُ عن النسيبِ وما عصيته

لا بل وفيت ولم أضع عهداً ولا وأياً وأيته
إلى أن بلغت:

فالأمر غير مقصّر لو خفتُ صاحبي اتقيته
طرب الخليفة وزمّ شفّيته مستأنساً ثم قرع قدحه بقدح الوزير،
ثم التفت لي مسروراً:

- أحسنت، أحسنت، هل تحفظ شيئاً آخر لبشار قريباً من هذا؟
- أما لبشار فنعم، ولكن ليس قريباً من هذا، وإن شاء أمير
المؤمنين أن أنشده شيئاً يصف هذا المجلس وما فيه من النعم والسرور
لأبي العتاهية فأنا على ما يشتهي الأمير؟
لم أكن أتم اسم أبي العتاهية حتى رأيت الكراهية على وجوه
الثلاثة عدا الخادم، فإنّ وجهه ما كان يشي بأي معنى غير ذاك المحصور
بين جلوسه ووقوفه بإشارة من الخليفة:

- أبو العتاهية، أترأى تدرى ما تقول، أخشى أن تفسد علينا مجلسنا،
وتخلع علينا شيئاً من صوفه ونحن نرفل في الحرير!

والله إني واريئُ الانقباض ورائي من ذلك الرجل ساعة أن
التقت عينانا، فما لبث أن تقدمني حتى وقف بيني وبين تملقه فيما يقول،
كان يلتفت إلى الخليفة ثم إلى الوزير يريد أن يعرف رجوع حديثه عليهما،

لا أظنُّ أن ليحيى سلطةً مطلقةً على هذا الرجل؛ ولكنه أقرب للخليفة ولا شك، وينبئ عن ذلك قرب مجلسه من الخليفة. كان في نظرات الوزير خشيةٌ من شيء يداريه كلانا من القلى البادي، وهذا ما يجعله في عين من لا يعرف ذا حظوةٍ لم تبدُ في هذا الموطن أعلى مما لذلك الرجل، لم أشأ أن أترك الخليفة يستقصيني من النظر أكثر، إذ كان على حاله ذا منذ أن تفوه الرجل بعبارته تلك، فقلتُ:

- تالله إني ما أتيتُ بطلب الخليفة وأنا أضمر في نفسي سوى ما يفوز برضاه وبهجته، وإني جعلتُ ذلك نصب عينيٍّ مقدماً إياه على ما يشتهي من كان في مثل حالي، وإن كان أبو العتاهية قد فشا بالزهد، فإنه قد طرق غير ذلك مما أعرف.

- لا أذكر أن له شيئاً قد طار بذكره..

- لعلَّ ذلك مما لا تعرفه يا هشام. حسناً، إن كان في وصف

مجلسنا، فلا بأس، هاتِ!

كان قصاصاً لي من هشام هذا، وإن لم يكن عن قصدٍ من الخليفة، غير أني ابتهجتُ لذلك جداً وتهياتُ لانتصارٍ آخر لم أكن أعرف على من، ولمن هو، أغمضتُ عيني ثم ألقيتُ نظرةً على الحديقة النائمة بالأسفل:

لهفي على الزمنِ القصير بين الخورنقِ والسدير

إذ نحنُ في عُرفِ الجنا ن نعوُمُ في بحرِ السرورِ
 في فتيةٍ ملكوا عنا ن الدهرِ أمثالِ الصقورِ
 ما منهمُ إلا الجسو ر على الهوى غيرُ الحصورِ
 يتعاورون مُدامَةً صهباء من حَلَبِ العصيرِ
 عذراء ربّاهَا شعاً عُ الشمسِ في حرِّ الهجيرِ

حين أتيتُ على ذكر صهباء علمت أن ما يُدار في الكؤوس هنا
 ليس بنبيذ، إذ طرب الخليفة أشد الطرب وبلغ به أن أفرغ ما في القدر
 بجوفه من رشفة واحدة، ثم مد للخادم به يستزيد، ثم بعث بارتياحه
 لي وببسمه ليحيى، دون أن ينظر لهشام، وكان هذا انتصاراً آخر لي على
 هذا الرجل الذي مدّ بيده على المائدة ليأخذ فاكهة مما يليه، كان وجهه
 يتمعّر. حمدتُ الله على ذلك، ثم إني أعدتهما حين أشار لي الخليفة بيده
 حين ملأ له الخادمُ القدر. بعث لي الوزير نظرةً هي أرحب ما تكون
 منذ أن توطدت بيني وبينه الصلة التي وهى حبلاً ولا شك، أمّا أنا فلم
 أبسّم إلا للخليفة مداهاً وإذا وقعت عيني على نظرة ممن عداه عمدتُ
 إلى أصدق ما في صدري فمزجتُهُ بأشد ما يعتلج في نفسي من نقمة وألم،
 فأسدد به عيني:

يتعاورون مُدامَةً صهباء من حلب العَصِيرِ
عذراء ربَّاهَا شعا ع الشمسِ في حرِّ الهَجِيرِ
لم تُدَنَّ من نارٍ ولم يعلق بها وضرُّ القدورِ
ومُقرطقي يمشي أَمَا م القوم كالرُشَا الغريرِ
بزجاجةٍ تستخرجُ السد رَّ الدفين من الضميرِ
زهراء مثل الكوكب الدُّ ري في كفِّ المُديرِ
ثم أغفلتُ:

تدع الكريمَ وليس يد ري ما قبيلُ من دبيرِ
إذ خشيتُ أن يكون السوس الذي ينخر في بهجة الخليفة التي
بلغت هنا ذروتها والله، كان بأشأ وجهه ينظرُ إليَّ، ثم يميل برأسه مترنماً
كغصنٍ نفث عليه نسيماً عليل إلى يحيى والآخر المتملق، ثم إني لما قلتُ:
ونخصراتٍ زرننا بعد الهدوء من الخُذورِ
رياً روادفهنَّ يد بسنَّ الخواتم في الخصورِ
أشار لي بيده:

- حسبك.

ثم تحدث مع يحيى همساً، فقام من فوره ليتجاوزني خارجاً من

الشرفة إلى الداخل، كان أحد الحاجبين يضحك وهو يُشير للآخر بشيء؛ لكنه ثبت وتأهب في مكانه آن أن مرَّ الوزير من عنده، كنتُ قد التفت دون عمدٍ؛ أنظر ما سيجري دون وجلٍ يقيناً، إشارة الخليفة لي بالوقوف لم تنبئ عن شيءٍ قد أساء لمجلسه، ولا شيءٍ قد يسوؤني، سأَل الخليفة هشاماً:

- هل كنتَ تظنُّ أبا العتاهية يقول مثل هذا؟

- لا والله يا أمير المؤمنين، وإن كان شاعراً مفلقاً لا مرء في ذلك، ولعل هذه قبل تنسكه.

- إذا أنت مدينٌ للرجل؟

- بيم؟ .. أنا لم أكن.. حسناً إن كنت ترى ذلك يا أمير المؤمنين، فأنا مدينٌ له، فلتَر - أبقاك الله - كيف أقضي دينه عليّ؟

- ما ترى؟

توجه لي الخليفةُ بسؤاله، ولم تكن من أماراتٍ أستطيع أن أقف على صفتها بدقة، فهي بين أن تكون حازمة وليّنة، وبين أن تصبح جادةً وساخرة، قلت:

- لا رأيي لي بحضرة الأمير، فنفسي لك بزمامها ولجامها.

- وإن ألزمتك بقوله؟!!

- إن كان لزاماً، فما أرى إلا أنك قد قضيتَ عنه حين أفصحت له
أمامي، وما في عفوي عنه إلا فضلٌ وكرامةٌ منك.
- تالله غلبك مرتين يا هشام.

ثم ضحك الخليفة بما لا كنتُ أظنُّه يدعو إلى ذلك، فتبعه هشامٌ
بخزيه، وبقيتُ ببسمةٍ صفراء أدعو الله ألا يكشفها لهم عن حقيقتها
التي أبطنتها في نفسي، فأنا مذكولٌ ما كنتُ إلا ضاناً بنفسي أسعى
إلى أن أحفظها مما هو أكبر من التزلفِ والمداهنة، ذلكما اللذَّين كانا أكبر
ما أعتقد من كبائر الضعة والهوان، فإذا هما سبيلي إلى أدنى غايةٍ لي من
الفرج، وقد كان يعزيني عن ذلك أنني غيرُ مؤمنٍ بما أقول، وقد أذن الله
تعالى لمن تكلم في دينه ورسوله إذا خشي على نفسه، فكيف بنفسي وأنا
لا أروم إلا نجاتها!

لم يمضِ كثيرٌ حتى جاء الوزير ومن ورائه ثلاث قيناتٍ لم ترَ في
جماهنَّ قطُّ عيني إلا ما كان من روح أسماء زوجي غفر الله لها ورحمها،
وتلك المرأة المجهولة التي أرسلتُ شكواي للوزير على فتوى قاضي
الحميراء بدفنها في مقابر غير المسلمين.

- ما قصةُ هذه الفتوى؟ أراك تعودُ على ذكرها، ثم ما خبرك عن

تلك المرأة؟

- كان لأبي الحسن جازٌ يهودي قضى في اليوم الذي وافق إياي إلى خورستان من الحميراء، وكان أبو الحسن محبةً منه لبقائي عنده سوفٌ وعداً كان قد وعده لي بصنع حدوةٍ لفرسي عند حدادٍ يعرف إتقانه في السوق، فكان أن قضى جاره فعزم ألا تذهب جنازته دون أن يمشي فيها إلى حيث مثواها الأخير، وأن يكون على رأس من يُعزى فيه إذ كان مقطوعاً مما يمتُّ له بقرابة في هذا المصر عدا ما يعرف من الناس، وكانوا قلة، يهوديان أغلب الظن أن أخذتهم فيه الحمية لدينهم قبل معرفتهم العارضة به، وكاهن المعبد الوحيد الكائن في أطراف الحميراء يتقدمهم لإقامة طقوس صلاتهم عليه وتساييحهم وتعاويذهم. هؤلاء كانوا كل من يعرفه هذا الرجل؛ زيادةً على أبي الحسن، أمّا أنا فحضرتُ لأن صاحبي وعدني أننا سنخرج إلى السوق حالما نفرغ من الدفن، ولم أكن لأقبل حتى أقسم لي بأغلظ الأيمان من أنه سيفعل هذه المرة، وأنا لولا أني قضيتُ من الأيام الثلاثة التي كنا قد ألزمتها بها أحدنا على صاحبه، لم أكن لألحف عليه، وأنا أعرف صاحبي في الطرق التي يتبعها في مماطلته، وقد كنتُ دائماً أقول له مازحاً: أحمدُ الله أن لم تكن تلك المماطلة في دينٍ يا أبا الحسن، ثم إنّه يعصر ملامح وجهه على عجل ويقطب من جبينه ويظهر من الجدد ما يعترض اعتقادي بهزله كل مرة فيخدعني به، ثم ينشئ لي

مقالة عن نفسه، لم أكن أصدقها عنه إلا أن يعرضها لي على تلك الهيئة، فيطلب مني أن أقرضه شيئاً من المال، حتى يقضي به ديناً عليه عند فلان في قاسط، وآخر في أقصى الصهباء، فأستعجل ما بجيبي من نقود فأمدّها له كلها إلا ما يلزمي للعودة، فيأخذها ويضحك، ثم يقول: لن تأخذ هذا الكيس حتى تستقبل خورستان وقد استودعناك الله، أمّا هنا فنحن نقودك وخدمك، فأضحك وأصارعه لأستردها منه فما أستطيع، كان حياً لا وجريئاً؛ ولكن في محبة وخير، وما علمتُ يشهد الله عليّ موطناً في فرع إلا كان صاحبي في طليعة من يتقدم إليه. أما إذا كانت مناوبة الزيارة عليه، فإني لا أعسره وأنا أعلم أن تبسطه معي وإدلاله عليّ لا يبقين في نفسه حاجة يمنعها الحياء من السفر، وهذا مما قد خصني به صاحبي من دون من يعرف خصّه الله بتوفيقه أنى حلّ وارتحل. كنا قد تعاهدنا أن نصل بعضنا كل عامٍ مناوبةً منذ أن آب أبوه إلى الحميراء مسقط رأسه بعد أن جاب الأرض بتجارته صبيّاً ثم شاباً ثم كهلاً إلى أن سلّم الأمر لابنه أبي الحسن، وكان على طول سفره ذاك يقيم قريباً منا في خورستان، وقد كان على صلة وثيقة بأبي رحمهما الله جميعاً، إذ كان أبي يبيع في مظلتها تلك بعض الأقمشة التي يستوردها منه، فآلف الله بينهما بما يشبه الذي بيني وبين أبي الحسن، حتى أن أمهاتنا قد تصاحبن، وافترقن من عهد قريب

رحمهنَّ الله، فبقيتُ أنا وإياه، هو على تجارتها، وأنا على كتبتي التي بعث نصفاً مما تركه لي أبي واشتريتها، وقاسمتُ ابن عمِّ لي في النصف الآخر؛ حتى لا أشكو الفاقة بين ليلةٍ وضحاها.

عقب أن فرغنا من صلاة العصر بمقبرة من المقبرة التي خصصت لغير المسلمين، وكانت شمالاً من الحميراء بنصف فرسخ على الأرجح. تأخرتُ قليلاً عن أبي الحسن وقد اقتحمهم وهم يدنونه من قبره المحاط بحشائش من جميع جوانبه. أو مأت لأحدهم برأسي تحيةً أو عزاءً لم أكن أقف بالضبط على المعنى الذي كانت له إيماؤتي تلك؛ ولكنني شعرتُ برهبة الموت وهي تنفذ إلى نفوس البشر دون فرق بين أصل أو دين، بين حرٍّ وعبد، بين غني وفقير، بين صالح وفاسق، أخذتني تلك الإطراقة وذلك التزهّد عما يفعلون حتى تنبّهتُ إلى صوت الكاهن، كان الصوتُ واسعاً عن الكلام الذي يردد به تلك التعاويذ وذلكم الدعاء، هزَّ اليهوديّان رأسهما مع تلاوته، وبقي أبو الحسن خاشعاً مكانه واقفاً بنظره على الكاهن وهو منحني داخل القبر، طوّفتُ بنظري أرجاء المقبرة، مبتعداً عن الفظاظة التي سأكون عليها إن أنا أعقبتُ هذا المشهد الأخروي بآخر مغمورٍ في لجج الدنيا عبر سوق الحدادين أبحث فيه عمن يصنع حدوةً لفرسي.

انصرفتُ وأنا غارقٌ في تلك المفارقة بنظري صوب جنازةٍ يحملها
ثلاثة رقيقٍ مع سيدٍّ يتقدمهم كان يتحدث مع حفارٍ آخر في ظلِّ عريشه،
وما هي إلا هنيهةٌ حتى أخذ هذا معوله ليضعه فوق رأسه، ثم طَوَّح بها
عالياً على ما كان دوننا كيفما اتَّفَق، فوقع قرب قبرٍ وحيدٍ انتصف المقبرة،
كنت أعرفُ أن لهم شعائرَ خاصة في ترتيب قبورهم، فجار أبي الحسن
قد انتظم قبره في صفوفٍ دون أخرى تتقدمهم بأربعة أذرعٍ غربي المقبرة،
هي لكهنةٌ أو من نسلهم، وعليه فلن تقدمه الأجرة التي كان يعمل بها،
أو الغنى الذي قد يقدره الله له ما حيي لأن يبلغ ذلك الصف. وقد
كانت في المقبرة أجداتٌ مبعثرةٌ هنا وهناك، لا أعلم لها سبباً، ولكنني
لا أعلم فيمَ هذا التلويع والتطويح والعبث؟ صحتُ بصوتٍ بين أن
يكون له رجع أو وقف:

- ما هذا؟

أجاب الرجلُ الذي قد أومأْتُ له:

- هذا للرجلِ فينا وقد أهلك نفسه، وللمرأة البغي.

تبادلْتُ وصاحبي - وقد توقف عن عمله حين سمع سُؤالِي
- نظرةً التعجبِ ذاتها دون أن ينبس أحداً لهنيهات ثم عاد ليحثو مع
البقية، أمّا أنا فلم أملك لساني حين قلتُ:

- هل هذا كثيرٌ فيكم؟

حدّج القوم إليّ بأبصارهم، بما فيهم صاحبي عدا أن نظرتُهُ لا تحمل ذلك المعنى الذي يرمقونني به، خاصةً ذلك الذي أو مأتُ له من قبل ثم أجنبي.

قلتُ قبل أن يعود الكاهن إلى عمله مع الحفار دون الآخرين وقد كفّا أيديهما ينظران إليّ:
- لم أشأ الإساءة وربي.

همهم لهم أبو الحسن بمثل ما قلتُ واعتذر عني كثيراً، ولا حرج عليه في ذلك وأنا لستُ إلا صاحبه الذي يعرف ما بصدري حتى وإن خرج بغير ما كان قد عرفه وعَهْدَه.

انصرفْتُ بنظري مرةً أخرى إلى العريش وقد أظَلَّ السيد ونصف النعش الذي وُضع على الأرض مما يليه، ورافق الحفار الثلاثة إلى موضع المَعول؛ ليحفروا مكانه. أمّا نحن فانتهينا وابتدأت مراسم العزاء الأخيرة من لدنا تجاه الكاهن وصاحب الإيماة والإجابة وصديقه الذي ما انفكَّ ينظرُ لي شزراً بين آنٍ وآخر، لم أكن قريباً من المتوفى، أو مهتماً بأمره حتى أفعل كما فعل أبو الحسن حين صافحهم وعانقهم واحداً واحداً؛ لكنني آثرتُ أن ينوب عما لا يعرفونه مني ما كنتُ أزور من كلامٍ في نفسي منذ أن

ولجنا المقبرة، فقلتُ وقد كان غيرَ ما استجمعتُ وزوّرت:

- إن يُلهمكم الله الصبرَ تفلحوا، وما من أحدٍ أحقُّ بأن يوصى

ألا يجزع سوى أهله، وأنتم رهطه في هذا الاقتطاع من الأهل، وهذا الانقطاع عن الحياة.

شيءٌ ما أمهلَ الكاهنَ في أن يشكرنا على هذه البادرة. التفتُ وأبا الحسن تجاه ما أمهلَ الكاهن وأثار الرجلين أماننا، كان السيّد إياه يتدافع العريش الذي سقط عليه، ولم أعرف كيف حدث هذا وقد وقفت الريح منذ وقتٍ ليس بقصير. تزحزح الرجلُ من مكانه ودفع النعش فسقط صاحبه، فلم يجرؤ أن يلمسه أو أن تأخذه الحرمةُ فيغطي جزءه الظاهر بما تدلى من الكفن. أظنه كان ينتظرُ فراغاً من أحد الرقيق، لم يسمعه أحد منهم إن كان قد نادى وهم يعملون، حتى نحن حينما تقدمني أبو الحسن، لم نكن نسمع له صوتاً غير أن شيئاً ما من مروءة ظلَّ ينادينا فاستجبنا له. تبعني اليهوديان ببطء. سمعتُ خطواتهما وهمساتهما أيضاً وإن كنت لم أتبينها، بلغ المكان أبو الحسن واقتربتُ أكثر. سبق الناس على النعش، ثم إنَّ السيّد حجب عني جزءاً من المشهد، كأنه داخلٌ فيه وهو ليس إلا خارجاً عنه. من بين انحناء أبي الحسن شمالاً ومكان الرجل يميناً لمحتُ طرف الملاءة الأبيض ملطخاً بدماءٍ ومعفراً

بتراب يكشف عن ساعد. يا إلهي هي امرأةٌ إذاً، لا حول ولا قوة إلا بالله، أكان هوانها من أجل أنها بغيةٌ كما قال ذاك اليهودي؟! ألا حرمةٌ لميتٌ عندهم؟!

دفعْتُ السيّد جانباً حينما بلغتُ، وأبو الحسن يرفع ساعدها برفقٍ لتعود على النعش، ويدفع بيده الأخرى رأسها الذي مال إليه برفقٍ حتى تستوي على ظهرها، بينما مكث السيد مكانه عند أقدامها لا يصنع شيئاً، أسرعتُ أسحب طرف الملاءة لأغطي بها وجهها قبل أن يعتدل؛ لكن الله أمهلني حتى أنظر، ولستُ والله أخا غِلظةٍ وجفوةٍ حتى أقدم على هذا، بل إني لا أتأخر أولّاً تأخّر لي إلا على مثل ذلك من متعلقات الموتى، فليس سهلاً عليّ أن أشاهد تاريخ أرواحهم مُسطراً في صفحات أجسادهم المائلة أمامي، وإني لولا أن رأيتُ خورَ هؤلاء الناس ما أردفتُ أبا الحسن في سجيّته هذه، زد على أنني لو كنتُ في غير هذا المقام، وغير هذا الظرفِ الغريب الذي أوجسّته في نفسي، للبيْتُ مكاني ساعة أن رأيتُ ساعد هذه المرأة ملقى عنها، ولأشرتُ لأبي الحسن أن يتّبعني؛ فراراً على غرار عجلة.

من النظرة الأولى، ما رأيتُ وجهاً شاحباً، ولا لوناً باهتاً، ولا أديماً مجديباً، بل كان غضاً كأنه نائمٌ حينه، أو ميتٌ للحظته. أشحتُ

بوجهي من فور أن أثبتني نفسي على ذلك، وكان أبو الحسن قد دفعها قليلاً لتعود على النعش فتستقر عليه تماماً.

- هذه المرأة ليست يهودية!

لا ريب أن الجميع قد صُعق لقولي ذاك - وإن بدا على السيد أثر ذلك القول شديداً للمدى الذي طرح بهيته جانباً إزاء ذلكم الاضطراب والتشوش الجلي - عدا أبي الحسن الذي رفع آن أن سمع قولي ذلك الجزء من الكفن ثم أعاده وفي وجهه ذلك المعنى الذي ألقينته بين يدي السيد أريد الجواب. كانت المرأة زيادة على ذلك الجمال، أو تلك العلامات المضيئة، رافعة سبابة يدها اليمنى، وهذا ما ينافي وجودها هنا من الأصل.

- ما شأنك أنت؟

كان السيد يود أن يعود سيداً في نظرنا حين أعمل ما كان للسلطة في صوته، وقد بدا وسمها في عمامته وعلى كتف عباءته.

- ما شأني؟! كيف لمسلم أن يدفن مع غير المسلمين؟!

- ليس لأحد من الأمر شيء هنا، ليذهب من لم يكن لديه حاجة!

تقهقر اليهوديان، وفي عيني صاحبي منهن نظرة شامته يردُّ بها على سؤالي ذاك الذي قلته عن غير قصد، لم يعزب عني ذلك؛ لكنني

فوق هذا كله، اقتربتُ من الرجل بكل مودةٍ وأبو الحسن عن يميني متقدماً بطرف، وقلتُ له:

- أنت تؤكد على ما قلتُ بكلامك هذا.

في الرجل لينٌ يخشى أن ينفرد من عقد هذه السلطة التي جاء بأمرها ثم يفسدُ الأمرُ كُلَّهُ.

لم يجب الرجل بشيءٍ ولكنه حدّق فيّ دون أن يبدي انحناءً ما. أسرع أبو الحسن إلى النعش، ثم أمسك بطرف الكفن فقال:

- أتحبُّ أن ترى ذلك بنفسك؟ ربما لم تتبيّن ...

- كفى! لستُ بصدد أن أجري على إرادتكما، أو أنني من الضعف بحيث أن أقبل ألا أدفع عن نفسي اتهامكما؛ لكنني آخذ منكما ما أعرفه بفطنتي لا بخوري من غيرةٍ على ديننا، وحرصٍ على إقامة حدود الله فيه، وما رأيتماه في هذه المرأة لم تخطئانه؛ ولكنها فتوى قاضيٍ في بغْيٍ قتلها أمُّها، وما دون ذلك فيما ترغبان به شيء، وإنَّه لأمرٌ قد قُضي.

- آبن منصور أفتى بهذا؟

- ليس ابن منصور، هو قاضي آخر، تبينْتُ الآن أنكما غريبان عن المدينة.

لم يكن الغريب سواي؛ لأن الحميراء ليست بالحميراء دون أبي

الحسن؛ ولكنه لما كان الأمر لم يجر على ذاكرته، نسي أن ينبئني به وهو يعلم منزلة ابن منصورٍ عندي، وقد بدأت بيننا المكاتبات إبان عهد كتابتي في القصر، ولم تزل إلى ما قبل زيارتي للحميراء بما دون العام بأشهر، كنتُ أثق في علم ذلك الرجل ثقتي ببنوتي لأبي، وقد كان يرُدُّ على الوزير بعض النقائض التي يمررها بحديث ضعيف أو أثرٍ كسي باستنباط أهل الكلام رداً لا رجعة فيه، وكان الوزير رغم ذلك يكبره، ولا يرى في غيره كفاءً فما الذي تغير؟!!

لم يكن يقف أبو الحسن نفسه ولا أهل الحميراء على أمر ابن منصورٍ كيف جرى، أهو من اعتزل القضاء، أم عُزل بأمر الخليفة، فالأقاويل كثيرة؛ يميل أبو الحسن إلى أصحاب الرأي الأول، محتجاً بأن الرجل شاخٌ وتداعى للمرض كثيراً في أيامه الأخيرة، حتى أنه كان يحيل بعض القضايا إلى مساعده، أما أصحاب الرأي الثاني فقد قيل أن الأمير لم يكن على وفاقٍ معه في أمور ماضية، فعزله بعد أن استأمنه أبوه على الحميراء وصار ولياً للعهد بعد موت أخيه زيد، أمّا هذه الأمور فلم أكن أعلم عنها شيئاً غير أني أرى القضاء فاز به حين وُلِّيَ عليه، وخسر خسراً مبيناً حين عُزل عنه.

هان عندي أن لم تكن تلك الفتوى تصدر عنه؛ ولكن لم يهن عليّ

دفن هذه المرأة في غير مكانها، حتى وإن كانت كما قال ذلك الرجل، رغم أن وجهها لا يوحي بذلك وربي.

ألقيت نظرة أخيرة على النعش، أبته بعض غصة عقلت في نفسي، وبأنني في ذروة الأمر لا أفهم حقيقة ما يجري؛ لكنني أفسح لتلك التعاليم التي وجدتها في الجثة ممراً من نورٍ في صدري، أتعبه فيما بعد بأماراته التي ما فتئت تبعث بإشارات حياة ثمينة معلقة لم يحن صعودها للسماء بعد. داعب نسيماً واهناً وجهي وأنا أرفع بطرفي تجاه الرقيق وهم يحفرون، ثم تجاه قبر اليهودي، ثم على المقبرة، ثم على الرابية التي تحف الطريق تسنمها صبي.

لم تكن لتفرغ تلك المرأة من حديثي عنها مع أبي الحسن أثناء عودتنا، فقد تطارحنا حولها الأحاديث، وأفردنا للشكوك مجلساً تتصدره ربيتنا فيما رأينا عليها وما قاله ذلك الرجل. وانتهى الأمر بنا إلى أن اتفقنا أن نذهب إلى القاضي، نستعلمه الخبر، فقد يكون ذلك الرجل كاذباً، وإن لم يكن فنفيد من صاحب الفتوى نفسها بحجة تلك الفتوى ودلائلها.

لم يزدنا هذا القاضي على حديث ذلك السيد سوى أن قال بأن أمها ليست في الحقيقة سوى زوجة أبيها، وأنه أرجأ أمرها إلى أن يتشاور

فيه مع عدة قضاة يأتمن دينهم وعلمهم، ولم يكن قد سمح لنا أن نجادله في فتواه، بل راح ينعتنا بأبشع الصفات، وبأننا سوقة لسنا نفهم قليلاً من الفقه، فكيف لنا أن نجادله ونحاجه. ثم دعا بحاجبه ليخرجنا.

ما كان ابن منصور ليفعل ذلك أبداً، هي أخلاق العلماء، أما هذا القاضي فما كنت لأتعجب من فعله وهو من أصدر تلك الفتوى الغريبة! في ليلة سفري، رأيتها في نومي واقفةً على ذلك القبر الذي كانوا يعدونه لها في ليلٍ بهيمٍ. نورٌ انبعث منها أضواء أرجاء الرؤيا، كان أحداً يقترب من الآخر، ولستُ على يقينٍ أينما الفاعل؟ كانت تلتفُّ بحجابٍ على رأسها لم أتبين لونه فبدت به وبالنور الذي يشع منها أجمل ما رأت عيني والله، قالت وهي تشير إلى ما حولها، وقد بدت قبورٌ متراففة - على غير الحقيقة - تحيط بقبرها، برز بينهم قبرٌ رُكِّزَ في وسطه سيفٌ مقبضه من فضة، وتراصت حول جوانبه دروعٌ ما استطعت أن أميز أياً منها:

- أذى!

بدأت أوجسُ في نفسي؛ ذهب ذلك الأنس الذي كان من نورها المشع، كنتُ أستوضح حينما قالت لي ذلك، أكان ذلك الحديث لي، أم لأحدٍ غيري لم تقع عليه عيني بعد، أعادت قولها وهي تنظرُ إليّ؛ لكن

بصوتٍ ملأ الحزن أطرافه حتى اختلط بشيءٍ من حرقة:
-إنهم أذى.

صعدت بنظرها إلى السماء، وكنتُ قد اقتربتُ منها أكثر، ثم إنَّها
أشاحت بنظرها إلى الأسفل، لستُ متيقناً من أنها دمعةٌ تلك التي سقطت
من قريبٍ من وجنتها أو أنها قطرةٌ مطر؛ هكذا أوحى إليَّ على أنَّ السماء ما
كانت غائمة؛ لكنني كنتُ على يقينٍ من دماءٍ تسيل على قدمها اليمنى من
أعلى رجلها فيما يبدو، ثوبها كان يجب ذلك، اقتربتُ منها حتى لم يعد
يفصل بيننا سوى قبر؛ أردتُ أن أسألها فيم كان هذا؟ لكنَّ صبيّاً دون
العاشرة بقليلٍ انكبَّ على قدمها يمسح تلك الدماء بلسانه، وهي تبتسمُ
له وتمسح على رأسه، بدت الكراهية على وجهي حتى وقع في نفسي من
أنَّها اعتادت على هذا وما كانت أمُّها إلا على حقٍّ فيما عملت؛ كِدْتُ أعود
أدراجي؛ لكنني توقَّفتُ حين شاهدتُ عجوزاً تركضُ من خلفها تشدُّ
شعر رأسها كمن ينوح على ميت، لم تأبه الفتاة وظلَّت تبتسم للصبي،
كانت أمُّها، هكذا وقر في صدري دون نبيٍّ من أحد، ظهر أبو الحسن
في الرؤيا ليمسك بأمها ويضمها على صدره، صدح صوتُ أذان بغيَّةٍ
فاختفى الجميعُ وبقيتُ وحدي أرددُ مع المؤذن إلى أن أفقتُ من نومي.
حين عدتُ إلى خورستان بحثتُ في طلب ابن منصور، وكان قد

قيل لي أنه مقيمٌ هنا عند ابنته تعتني به مما ألم به مؤخراً، فزرتُه وعرضتُ عليه فتوى ذلك القاضي، فأمهلني أياماً عشرة حتى ينظرَ في ملابساتها ويسأل من لديه زيادةٌ في الخبر عنها. وما كنتُ لأجرؤ أن أسأله عن سبب تركه للقضاء، وما كان هو ليتدبرني ذلك كما عرفته وعرفتُ عنه.

ذهبتُ في تأويل تلك الرؤيا إلى أعلم المفسرين في خورستان أبي محمد الطيلساني، فقال لي بأنها أضغاث أحلام، أو أنه لا يعرف تعبيرها إذا لم تكن كذلك، ثم إن نفسي لم تهدأ فرويتها لأحد المعبرين المغمورين، فقال: ستدفن الفتاة في غير تلك المقبرة، وللصبي الفضل الأكبر في ذلك، أما أمها فأصببت بلوثةً في عقلها. سألتُه عني وعن أبي الحسن، فأجاب بأني سأصده بكلمة حقٍّ في أمرها، أما أبو الحسن فلم يظهر له شيئاً.

كنتُ أتمنى أن يصدق ذلك التأويل وأن تذهب صحته بتلك الريبة في صدري من تعبير الطيلساني، ومن حديث نفسي مع استحضاري ليوسف عليه السلام في سجنِي. لكن ذلك خاب حين لم يحدث شيء وتبين أنها أضغاث أحلام لا أكثر.

ثم كانت تلك الرسالة التي تعلمها إلى الوزير يحيى عقب نقض ابن منصور. لكن أتدري؟ أشعرُ بأني أنقض عهد الخليفة، وليس هذا من صفاتي.

- ليس الأمر على ما تقول، يدُّ الخليفة لم تعد تقبض على الأمصار ذاتها التي كانت له حين نفاك.

- ليسوا سوى ثلاثة أشهر.

- إنَّ الأمر متقلقلٌ منذ ما يزيد على ثلاث سنوات، ودعوة ابن المنذر وجدت تأييداً واسعاً لدى الحميراء وشمالَي البلاد، وقد شارفت معركته معهم أن تصل خورستان.

كان قد قيل لي شيءٌ في ذلك من قبل جماعةٍ عربية في تلك البلاد التي رُضيتُ أن أنفى بها بعد أن عفا عني الخليفة في رضى لم يسبق أن فاز به أحدٌ غيري، هكذا قال لي الوزير حين ودعني، على أني ما كنتُ أعرف فيمَ كان غضبه عليَّ من الأصل؟ حين قيل لي ذلك ذهبَ من نفسي بعضُ شيءٍ وجدتهُ من عهدٍ مع الخليفة سأنكته بهذه العودة، حتى وأنا لم أقصد إلا الحميراء، وها هو هذا التاجر الذي نصحوني بالعودة معه يقول مثل ما قالوا، أزاح عني ذلك أيضاً شيئاً مما بقي، فشكرته كثيراً في نفسي، ليس على ذلك وحسب، بل على قبوله مرافقتي له في قافلته وإن كانت بأجر، وعلى منادمته لي طيلة هذه الأيام التي قضيناها في السفر وسماعه لحكايتي واهتمامه بما جاء فيها.

أشار إلى ما دون شعلتي نارٍ ملتهبتين، بأنَّ هذا هو باب الحميراء،

لم أكن أعلم أن قد كان للحميراء بابٌ؛ ولكن للحرب أسبابها، وكأنَّ رجال ابن المنذر خطُّوا حدوداً للحميراء، فلم يكن القادم قادراً على أن يدخل سوى من هذا الباب؛ إذ امتدَّ على جانبيه خندقٌ عرضه مما لا تستطيع أن تأتي بفكرةٍ من رأسك لتثب إلى جهته الأخرى. أخرجتُ كيس نقودٍ من جيبِي فأعطيتهُ إياه، أخذه معتذراً بأنه لولا كساد التجارة في هذا الوقت لما رضي أن يأخذ مني شيئاً، ثم إنَّه سألني:

- هل كل النقود التي تحملها مثل هذه؟

- أجل، لم؟

- إن شئت فأعطينيها لأستبدلها لك، فقد سَكَّ القومُ هنا نقوداً خاصةً

بهم لا يستعملون غيرها، إلا ما كان من مصرٍ بعيد، أمَّا نقود الخليفة فإنهم يتورعون عمن يحملها أن يكون عرضةً لأذاهم.

- وماذا إن أردتُ أن أستبدلها أنا منهم، ثم ماذا عنك وأنت تحمل

منها الآن؟

- قد تستبدلها لديهم؛ لكنني لا آمنهم عليك وأنت غريبٌ فيهم لا

تعرف إلا صاحباً لا تدري أين مقامه بعد هذه السنوات وهذه الحرب؟!!

أما أنا فيعرفون تجارتي ولن يؤاخذوني بما أصنع طالما أن كنتُ على رضَى منهم. أنت وشأنك، كنتُ أعرض عليك المعونة وحسب.

قبل أن نقف أمام الباب عند أحد الحارسين مددت له بالنقود، خشيتُ مما قاله، وأنا لم أعد أحتمل من الأذى قدر ما جرى لي. ابتسم في وجهي وقال:

- لن آخذها إن كنتَ مرتاباً. سأحبسها معي حتى يأذن لنا الحارس بالدخول.

- لا ليس الأمر كما ظننت؛ ولكنني كنتُ أفكر في شأنٍ لي ملياً، خذها ولك أجر استبدالها.

- إذا سأراك بعد غدٍ في ساحة سوق العطارين.

تفحص الحارس وجهي، ثم قال للتاجر:

- من هذا؟

- تاجرٌ من قاسط، وصاحبُ سفر.

يظهر أنه كان يعرف صاحبي التاجر ويثق به ثقةً لا حدود لها، وإلا لما أذن لي بالدخول ولم يتفقدي وما أحمل من متاع، وهو الذي لم يرني في نوبة حراسته من قبل أبداً. وأنا ما كنتُ لأفكر بهذا لو لم يأذن لنا، فحمدت الله أن سارت الأمور على خير.

على بعدٍ قريب من الباب تعذر الرجل عن إكمال المسير وخبرني بين أن أنام معه ثم ندخل المدينة صباح غدٍ، أو أن أكمله وحدي إن

شئت. أخذني الحياءُ من الرجل كثيراً، وتذكرتُ أني سأرهقه غداً
أيضاً إن أنا نمت معه هذه الليلة هنا في ألا يفرغ لعمله باكراً، ثم
إني خشيتُ أن أثقل عليه الصحبة، وما عهدتُ على نفسي أن تفعلها
لمن هو أقربُ منه، فكيف بهذا الذي جمعتني به الدنيا من بضعة أيامٍ
وإن كانت على متن سفر؛ ذلك المتن الذي يطوي مسافاتٍ يبسطها
التكلف والتحرُّج والزمنُ نفسه بعوائقه التي يأتزر بها.

ودَّعتُ الرجلَ داعياً له، وقد أرشدني قبل أن يأخذ مضجعه
إلى أي طريقٍ أسلك من ذلك المفرق، فأنا وإن زرتُ الحميراء من
قبل، لستُ من أهلها، ولستُ أعرف سوى جهةٍ جنوبيةٍ أدخل معها
وأخرج منها إلى خورستان.

تسللت النشوة إلى قلبي، شعرتُ بأني حرٌّ كما كنتُ قبل تيك
السنوات التي وددتُ أن أسأل الله ألا يحسبها من عمري لولا أنني
ظننتُ أن بها من العمل الصالح ما لا مثيل له في غيرها من سنوات
الرخاء، أما تلك الأشهر الثلاث التي قضيتها عند العجم فما أنا
بواقفٍ لها على صنفٍ يشملها، أهى من قبيل تلك الشدة، أم من نفر
هذا الفرج، على أن معناها الدلالي في المجمال لا يخرج عن الحبس،
وإن كانت بمسافةٍ أكبر، بيد أن الخروجَ منها أقربُ منالاً مما تحده

أسمعُ وقعَ خطواتٍ، تقترب ما من شكٍّ في هذا، التفتُ ورائي فإذا بغبرةٍ لم أثبت شيئاً منها. كان ضوء القمر دليلاً عليّ وعلى تلك اللحظة، فما كنتُ لأشعل المصباح وقد استعضنا عنه بضوء البدر في ليلتنا هذه. الأقدام تقترب، وبأقصى ما أستطيعه من سرعة سللتُ سيفي الصديء من غمده الذي كنتُ أتقلده، فإذا بجماعةٍ من العسس يحيطون بي، فاستسلمتُ لهم على أمانةٍ من ألا يكونوا قاطعي طريق؛ لكنهم كانوا كأنهم يبحثون في طلبي، وهذا أشدُّ ما كنتُ أخفيه على أمتي تلك وما استطعت!

في دار القضاء تلك التي دخلتها مع أبي الحسن قبل أعوام، رُميتُ في يمين الغرفتين اللتين أعدتا لحبسٍ قصيرٍ هناك. صحتُ فيهم أعلمهم بنفسي وبخبري، وبأنني أبحث عن أبي الحسن، طلبت منهم أن يأتوني بكبيرهم أتحدث معه، أو بأحدٍ لا يكره أن يكلمني. أسألهم:

- ما تهمني؟ ما شأني معكم؟ ما أمري؟ ما فعلتُ؟ ظننتُهم في البدء يسجنون الغرباء ليتحققوا منهم، وحين نقلتُ لهم حسن ظني هذا، شتموني وسخروا مني ثم ضحكوا علي.

ما كان منهم أحدٌ يُحييني، أو يبالي بما أقول.

كنتُ أخشى أن يتكرر قدري بأن أُسجن مرةً أخرى، وكنت
أموتُ خشيةً من ألا أعلم فيمَ أُسجنُ في كل مرةٍ قُدِّرَ عليّ ذلك!
أغلقوا الباب وتركوني في غمرةٍ دهشتي مما يجري، وكيف
جرى؟

أتعلّق بالباب، أصبحُ بهم من نافذته؛ وما أجدُ طاقةً في نفسي
على ذلك ولا شهوة، أتوضأ من إناءٍ موضوعٍ قرب الباب، فأستوي
في صلاتي. يتبادر إلى أذنيّ صوتُ رجلٍ يثن، واهنٍ.. جريحٍ.. شيءٍ
من ذلك الألم الذي لا تحتمله النفس بصيحةٍ ولا تقوى على ذلك،
أبدأ كأنه هذا الذي يُنكأ في روعي فلا أجد له بالغاً من الإيمان يربط
على الجزع الذي يسيل منه.

جاء الصبحُ ليدخل عليّ أحدهم وأنا نائم محل صلاتي. يقتادني
إلى ما كان ذلك القاضي يعيب عليّ وأبي الحسن أن كنا سوقةً لم نبلغ
ما بلغه هو من علمٍ وإيمان. لا أعلم لمَ أبدو غير مبالٍ؟ ربما لأنني لم
أقف على ما سيحدث لي بعد، أو أن الثلاث الفائتة جعلت مني ممنعاً
على المسكنة في مثل هذا؟!

كان متاعي بين يدي من دعائي منهم، وسيفي ملقى وراءه.

سألني حين وقفتُ أمامه:

- ما اسمك؟

- أبان بن مهل بن أبي العلاء.

- ممن؟

- من خورستان.

قطَّب بحاجبيه، بدا عليه حزمٌ لكن بشيءٍ من الرفق يغلب عليه. كنتُ أدعو الله في سري وأسأله النجاة على يدي هذا الرجل.

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- أبحث عن صاحبي أبي الحسن بن الفضل الحُميري.

- أبا الحسن!

قالها ثم التفت إلى الرجال الذين حوله وقد بدا بعضهم

يتبسم:

- ما مقدار ما بينكما من صحبة؟

- هو المقدار الذي بعثني في أن أراه عقب ثلاث سنواتٍ

حُبستُها في قصر الخليفة، ثم أشهر ثلاث نُفيتها إلى بلاد العجم، فخالفتُ عهد الخليفة في وجهٍ من سوء ظني بنفسي لآتي في طلب صاحبي.

- هل تعني أنك لم تقدم إلى هنا من خورستان، أو مما يلي بلاد

العجم من مصرنا؟

- أبداً. قدمتُ من منفائي.

- ما علامةُ ذلك؟

- ابعث من يقصُّ أثري وذلك التاجر.

- وهل تعرف أين هو الآن؟

- لا، كل ما أعرف عنه أنه تاجرٌ يُدعى أبو حكيم.

- هل تعلم من يُكون السجين الذي يمكث في الغرفة

الأخرى؟

- لا، ولا يهمني.

- هل كنت لتفديه بنفسك لو علمته؟

- إن كان أبا الحسن، فنعم.

- فيمَ هذه؟

كان يشيرُ إلى إضبارةٍ من كتبٍ ابتعتها من وراقٍ عربي هناك:

- لأقرأ، أجد صلتني بالحياة وبالناس فيما أشرتَ إليه.

أوماً برأسه، فأمر رجاله بأن يعيدوني إلى الحبس، صحتُ

فيهم ورجوئُهُ أن يقفوا بي حتى أحدثه. سمح لهم بذلك عند عتبة الباب:

- نشدْتُك الله أيها السيد، من نزيل الغرفة التي أمامي؟ هل هو

أبو الحسن؟

- لا.

- ما تهمني إذا؟

- أخشى ألا تكون لديك تهمة!

- وهل سيؤخذ عليّ بذلك؟!

أشار على رجاله بأن يأخذوني. لم أكد أستطيع مع الحارسين

أن أدخل حبسي دون أن يدافعوا بعض رجالٍ فاضت بهم الحجرةُ

التي أمامي. حين أغلق عليّ قُربتُ أذني من الباب حتى أسمع. بدت

همهماتٍ من عدة أصواتٍ لم أتبيّنهنَّ، ثم سمعتُ أحدهم يقول:

- تالله ما هذا دواؤك يا عدو الله، إنّ دواءك ما تعرفه مما لا

تطيقه من أيدي الرجال؛ لكنها سنّةٌ قد مضت.

عارضه آخر:

- وددتُ أن لو كنتَ بعافيتك حتى لا أبقى في عظمك لحماً.

وآخرُ يتحسر:

- آه لو كنا سبينا إحدى أخواتك هنا، لتنظر ما نفعل بها

أمامك!

ثم اختلطت الأصوات وتداعت ولستُ أدري أصوتٌ منها أنكر على هذا الأخير ابتذاله وفحشه وسفالته أم لا. ما كان يجدرُ بهم أن يفعلوا به هكذا، ما بال هؤلاء القوم؟ لا أرى بهم نقصاً عن أذى رجال الخليفة، أفإذا تم لأحدٍ أمرٌ يتمكن به من رقاب الناس آلى ألا يراعي في ذلك إلا أدنى ما في نفسه من ضعةٍ، وأعلى ما فيها من هوى، حتى إن الشيطان ليبرأ إلى الله من ذلك السوء قبل أن يكون له ذلك في الآخرة.

أسمعُ صوتَ الرجل الذي حقق معي آنفاً يعتذر من الرجال في إخراجهم. وقفتُ لأسترق النظر إليهم وهم يخرجون، حين أطل آخرهم برأسه خشيتُ أن يذهب دون أن يسمعني، قلتُ له:
- ما أنتم فاعلونه بي؟ ولم أنا هنا؟

التفت ليذهب دون أن يظهر مبالاةً بما أقول، فقلتُ بصوتٍ

أعلى:

- تالله سيسألکم الله عني، وما أظنك إلا كريماً أدخلتک هذه
السياسة في ظلمي، وما شيء أقسم الله على نصره كنفس المظلوم،
وإني والله لأخذُ بناصية هذه القبلة فادعو الله عليكم دعوة أقسم
بالله ألا يردّها أبداً!

وقف على حاجزٍ كان يؤدي إلى مكانه الأنف، ثم التفت لي
كأنه خشي من طريقي لأبواب السماء، فقال وهو يشير لي بيده:
- بقيتُ لك عندي علامةٌ واحدة تبرئك. سل الله أن يأتي بها!
- بل أسأله النجاة دون أن أطمع بها في يديك منها.

أشحتُ بوجهي، وفي الرجل ذاك أملٌ أنازعه نفسي ألا تميل
إليه. يدور في أذني صوت تلك القينة التي طلبها الخليفة أن تغني
ما أنشدته لأبي العتاهية حينما أوقفني ليستدعيها الوزير، لا أدري
ما الذي يناسبه هذا فيما أتمرغُ فيه الآن. والله لو كنتُ شاعراً مجيداً
لما استطعت في غمرة هذا السواد الذي يكتنفي من وجه الدنيا أن
أقول بيتاً يصف حقيقة ما يقع علي، وما أشعرُ به.

الحجرة التي أمامي تُفتح ثانية.. أحدهم يدخل:
- اليوم يومٌ يخزيك الله فيه.. يومٌ ندفع فيه عن حدٍّ من حدود

الله وقد انتهكته بما في يديك من إمرة وسطوة..

صوت صبي بين أن يبلغ ودون ذلك بقليل يسفهه. ما قصة هذا الرجل؟ ما الذي اقترفه بحق هؤلاء كلهم حتى يأذنوا لهذا الفتى أن يجهل عليه، والله إني لأظن أنهم جاءوا عليه بإهانة لا يتمها سوى أن يدخلوني عليه وأنا جاره الغريب في هذه المصيبة لأفرغ فيه من حرٍّ ما في نفسي ما لا يستحقه ثم يعودون بي إلى غرفتي.

تُرى من يكون هذا النزيل الذي بقدر إمرته وسطوته حقّ لهم أن يجهلوا عليه. وددتُ في نفسي أن كان ذلك القاضي اللعين، ووالله إن هذه الشتائم واللعنات لا تصلح إلا لمثله بسوء ما صنع!

عدتُ لما جرى بيني وبين كبير هؤلاء العسس، فحين جرى على لساني ذكرُ أبي الحسن تعجّب تعجّب من ينكر معرفتي به، وكأنّه أحقّ بتلك المعرفة مني، كان كأنه يعرفه، أو بينهما شيءٌ ما، ليس للكراهية فيه نصيب، ليتني أقف على ذلك، بل ليتني أخرج من..
- أبشري أبا ن

زاغت عيناى وسجدتُ لله وما والله أذكر أني سبّحتُ أو حمدتُ أو استغفرتُ الله؛ لكنني خارٌّ على جبهتي أبكي. رفعتُ فإذا

برئيسهم إياه يبتسم ويقول ماداً إليّ بمتاعي وبجانبه الصبي:
- ستذهب لصاحبك برفقة هذا الفتى. بعثنا من يعرفك له
فعرفك.

قلتُ وأنا آخذ متاعي عدا السيف:

- وكيف لا يعرفني؟ ثم لم لا يأتي إليّ؟!

أجاب الفتى:

- إنه جريحٌ وأوصاني أن آتي لآخذك إليه.

- جريح؟! ممّ؟

- أجل؛ لكنه يتماثل للشفاء. لا تجزع يا عم!

- هلّم بنا إليه، هل انتهيتُم أيها السيد؟

مدّ لي بسيفي:

- نعم، كان هذا بصدئه علامة براءتك الأولى؛ لكن والذي

برأك لأخذنَّ بحقك.

- إذا ما كان الأمر محصوراً على التحقيق؟! إلى الله المشتكى،

كُن بخير.

ارتبّت في أمر الصبي وقرابته من أبي الحسن، وإن كان لم يسبق

لي أن رأيته وأنا الذي أعرف أبناء عمومته وخوولته وأبنائهم؛ لذلك سألتُهُ وما كنتُ معتاداً على مثل هذا، قال لي أنه يتيمٌ من قرية بنانة تعهده أبو الحسن بوصيةٍ من عمه. تحدث عن ولائه لابن المنذر كجميع أهل الحميراء والصهباء - منبتُ دعوته - وما كان شاملاً منها جهة ثغرٍ على البحر بينهم وبين العجم، ثم سرد عليّ كيف أبلى أبو الحسن في معركة «القرم» الأخيرة، وكيف أنه اختلف مع ابن الخليفة ضربتين فنزل كلُّ منهما عن فرسه، ثم انهال الناس على إياس يريدونه حياً، فطار ذكر أبي الحسن أن كان سبباً في ذلك، وكان هذا أمراً فاصلاً بين ابن المنذر والخليفة. وقع ذاك منذ يومين اثنين، ولم تبلغ جراحات أبي الحسن مبلغاً كبيراً إلا أن تقعده على الفراش لبضعة أيام، هذا ما قيل للفتى أو عاينه فحكاه لي.

- هل تعني أن ذلك المسجون هو سمو الأمير إياس؟!

أمّا الفتى فقد غضب إذا ما زلتُ أحفظ على الأمير إمارته ومقامه؛ لكنه لا يدري ما أمري؛ لذا عذرته وإن كان قد شارف على أن يسفّهني حينما تعجب من أن يصحب رجلٌ كأبي الحسن رجلاً مثلي يبجل ذلك الأمير الفاسق، وما كنتُ والله أعلم أحداً صالحاً

منهم جميعاً غير زيدٍ رحمه الله، وما فوق ذلك علم.

واهِ يا صاحبي، تالله وددتُ أن تشاركتُ وإياك هذه الجراحة وهذا الوجع كما تشاركنا اللحظات الهائلة، والبسات الصافية، والهموم العابرة؛ لكن عزائي أنني أتوجعُ لك أضعاف ما يتوجعه هؤلاء الناس عليك، منذ أن أطبق الفرعُ على صدري مما تفعله الدنيا بأحبائي زمن أسري وكنْتَ أنت على رأسهم، ثم من تلك الأخبار الموحشة التي بلغتني في بلاد العجم عن الحميراء واضطراباتهما بين الفريقين، ولم أكن أعلم من قبل أنها أذعنت لذلك الداعي الجديد، وكانت نفسك - حفظك الله - أخشى ما أخشى عليه فيها، والله لو تعلم يا صاحبي أني أتيتُك وما فيَّ من ذلك الذي تعرفه سوى محبتك ومقدار ما انحنى من ظلي لشقَّ عليك أن أملأ نظري - أسفاً - من هذا الضماد الذي يغطي ترقوتك إلى أسفل من زندك!

أقبلُ رأسه ثم يحمد الله بلهجة المحب أن أبقاه لهذه اللحظة حتى يراني فيما تبقى من عمره، وقد طالَت به أهوال هذه الحرب وضاعفته حتى كأنَّ هذه الثلاثة عشر، وكأنَّ هذا الحسم الذي يقترب حقيقة لا يأتي. كنتُ أعرف هذه الوجه، كان وضاءً جميلاً

لا يعكر صفو تجاليده سوى ما غطى عارضيه من شعر أفاض عليه
بهاء أكثر، ثم هاهو الآن ناتئ من هنا، مخدوش من هناك، تملأه
ندوب الجراحات وآثار الرضوض؛ لكنه في نفسي هو صاحبي
الذي أحبيت، كما أنا بغبرتي هذه في عينيه الآن.

أشار عليّ يمينه:

- والله ما حبسك عني إلا أن تُسجن، أو تموت فيبعثك الله

من بعد.

- أجل، كنتُ في سرداب الخليفة أرسف في ظلمات بين

حيطان أربعة ليست رحبةً كما قد يخيل للسامع وهي تطوقني حتى
تكاد تدق عنقي.

- والله إني قلتُ بذلك قبل أن يبعث خالد ابن عمك بنسخة

من ورقة لابن منصور - رحمه الله - وُجدت فيما نسيه عند ابنته فيها

توقيعه على رسالة إلى الخليفة بطلب منك، عقب أن تقضى مع

صهري عنك، واقتحم بيتك فلم يجدك. ولما بلغني ذلك أجزمتُ

أنك إنما حبستَ وفي ذلك الأمر.

- أي أمر؟!

نظر إلى الصبي، ثم قال له:

- هذا من كان معي في المقبرة، وهو الذي تحدث مع عامل

الأمير في شأن معلمتك وأغلظ عليه!

بكى الصبي، ثم أقبل علي وقبّل رأسي ويدي، ثم قال:

- أرجو أن تسامحني يا عم.

أردف أبو الحسن:

- وهو من أرسل للخليفة رسالةً في شأن فتوى ذلك القاضي

الهارب لعنه الله، ثم.. ثم سُجن.

أجج الصبي من بكائه حين أردف أبو الحسن، فأخذتني به

شفقةً لا مثيل لها جراء بكائه المرير، ثم قلت:

- ما الأمر يا أبا الحسن؟

- هل تذكر تلك المرأة التي دفنت مع جاري اليهودي في

المقبرة؟

- أجل.

إنّه في ما تلى ذلك اليوم الذي ودعتني فيه بليلةً، رافقت ابن

خالي - وقد كان أحد رجال ابن المنذر - إلى ما بيننا والصهباء على

طريق المقبرة ليلاً، كان قد أمضى بضع نهارٍ فقط في عملٍ له أنجزه على عجلة، ثم لما افترقنا بإزاء المقبرة، سمعتُ أصواتاً ورأيتُ سراجاً لا يكاد يُرى إلا بعد تمحيصٍ من النظر، فانطلقتُ بفرسي إلى هناك حتى دخلتُ المقبرة. وجدتُ رجلين يردفهما هذا الصبي يحثون التراب على قبر تلك المرأة، عرفت أنهم حملوها منذ وقتٍ إلى بنانة حيثُ قُتلت هناك لما دافعت دون عرضها أمام ذلك الماجن إياس الذي اختطفها وأتاها مراتٍ وكراتٍ مع رجاله، ثم قتلها ورمأها أمام حانةٍ قديمةٍ في الحُميراء، ثم ألصق تلك التهمة بأمرها وقد كانت ممن لها رفقة قديمة مع أمه قبل أن تُصاب بلوثةٍ في عقلها فأخذوها بها عندهم حيلةً أمام الناس، شاهدُ ذلك بضع رجالٍ أبت عليهم مروءتهم أن يأتوا مثل ذلك أو يخرسوا عنه، كانوا معه في بستانه ببنانة حيث يأتي لها أواخر كل شهرٍ ليقيم فيه، وإنهم الآن من أحد رجال ابن المنذر الثقات. كان رجال العسس في إثري وما علمتُ، فراوغتهم، وقد قتلوا واحداً وجرحوا الآخر، وكان القتل هو عم هذا الصبي وكافله، فأوصى به إليَّ حينها، فهرعتُ به إلى الصهباء في أعقاب ابن خالي حتى إذا أمنتُ معه، تقطعت إلينا الأخبار هناك بأن

رجال الأمير داهموا بنانة فاستحيوا نساها وذبحوا رجالها فما كان من ابن المنذر إلا أن يعزز دعوته بمثل تلك المظلمة التي سيدفعها عن أهل تلك البقعة، فغمر ما يصل من الصهباء إلى الحميراء برجاله وعسكر هناك مدة حتى بدأ يناوش أطرافاً من الحميراء، فاستدعى ذلك الأمير أن يكف عن بنانة وأن يلتفت للحميراء، فانقضَّ جندُ ابن المنذر على بنانة وقد كنتُ معهم في أول معركةٍ فطردناهم عنها شر مطرد، ثم إنَّه لم يبقَ للصبي أحدٌ من أهله، فمضيتُ في وصية عمه لي، حتى إنه ولمشيئة الله - سبحانه - يا أبان، لم يصلوا لقبرها وقد نبشوا كثيراً من القبور حتى يتحققوا منها؛ ولكنَّ الله أعماهم عنها وقد توسطت قبرين اثنين أتوا على عظامها نبشاً ونقياً. كانوا في تلك الأيام قد تذرعوا للناس بأنَّ أهل بنانة إنما كانوا يمررون دعوة ابن المنذر إلى الحميراء، فشيطنوها أمام الناس حتى لم يعد يشفق على أهلها إلا من رحم الله، ثم إنَّه يا صاحبي لو تعلم كيف هي رحمة الله بهذه الفتاة وكيف كان ستره عليها وقد كانت هي الشعار الأكبر لدعوة ابن المنذر إلى نفسه بعد أن حدث لبنانة ما حدث؟ طَوَّعَ الله له الأمصار فأخذ الحميراء وقاسط وما والاها وشمالاً من

الصهباء وغربها حتى طمر أمر الفتاة في أوج ذلك، ولم يبقَ ممن لا
يجهل أمرها إلا من هو آخذ بحققها. وقد قدَّر الله لي في تلك المعركة
أن أهوي بالسيف عليه فأصيبه قبل أن يصيبني، حتى تكالب عليه
القوم، وقد أراد خالُّ للفتاة من قبل أن يقوم بذلك بنفسه، فحبس
حتى يحضر!

- متى سيكون ذلك؟

- بعد صلاة عصر اليوم إن شاء الله.

كان قد أجاب الفتى، ابتسمتُ ولست أدري أبدًا عليَّ ذلك؟

أم بقي في سري؟ فقلت لأبي الحسن:

- ذلك تأويل رؤيائي يا أبا الحسن!

- رؤياك، وما رأيت؟

- رأيت..

طُرق الباب، فذهب الصبي ليفتحه، سأل الطارق عني،

سمعتُهُ فخرجتُ إليه، كان قائد العسس، ومن خلفه رجلٌ يجلد

آخر ملقى على ظهر حمار، قال لي:

- لقد مكَّننا الله من الفاسق الذي ادَّعى بأنك أحد جواسيس

الخليفة علينا، وآلينا أن تأخذ حَقك منه أمام الناس .

رفع الرجل القريب منه رأسه لما رأى استنكاري، فإذا به هو

ذاك الذي ..

صَحْتُ:

- أنت؟! أين مالي يا خبيث؟!!

مَلَّتْ

مبارك الهاجري

ظلمات

القيث نظرةً أخيرةً على النعش، أبثه بعض غصةٍ علقت في نفسي، وبأنني في ذروة الأمر لا أفهم حقيقة ما يجري: لكنني أفسح لتلك التعاليم التي وجدتها في الجثة ممراً من نورٍ في صدري، أتعبه فيما بعد بأماراته التي ما فتئت تبعث بإشارات حياةٍ ثمينةٍ معلقةٍ لم يحن صعودها للسماء بعد. دأب نسيماً واهناً وجهي وأنا أرفع بطرفي تجاه الرقيق وهم يحفرون، ثم تجاه قبر اليهودي، ثم على المقبرة، ثم على الرابية التي تحف الطريق تسنمها صبي.

ISBN 978-603-01-6194-2

